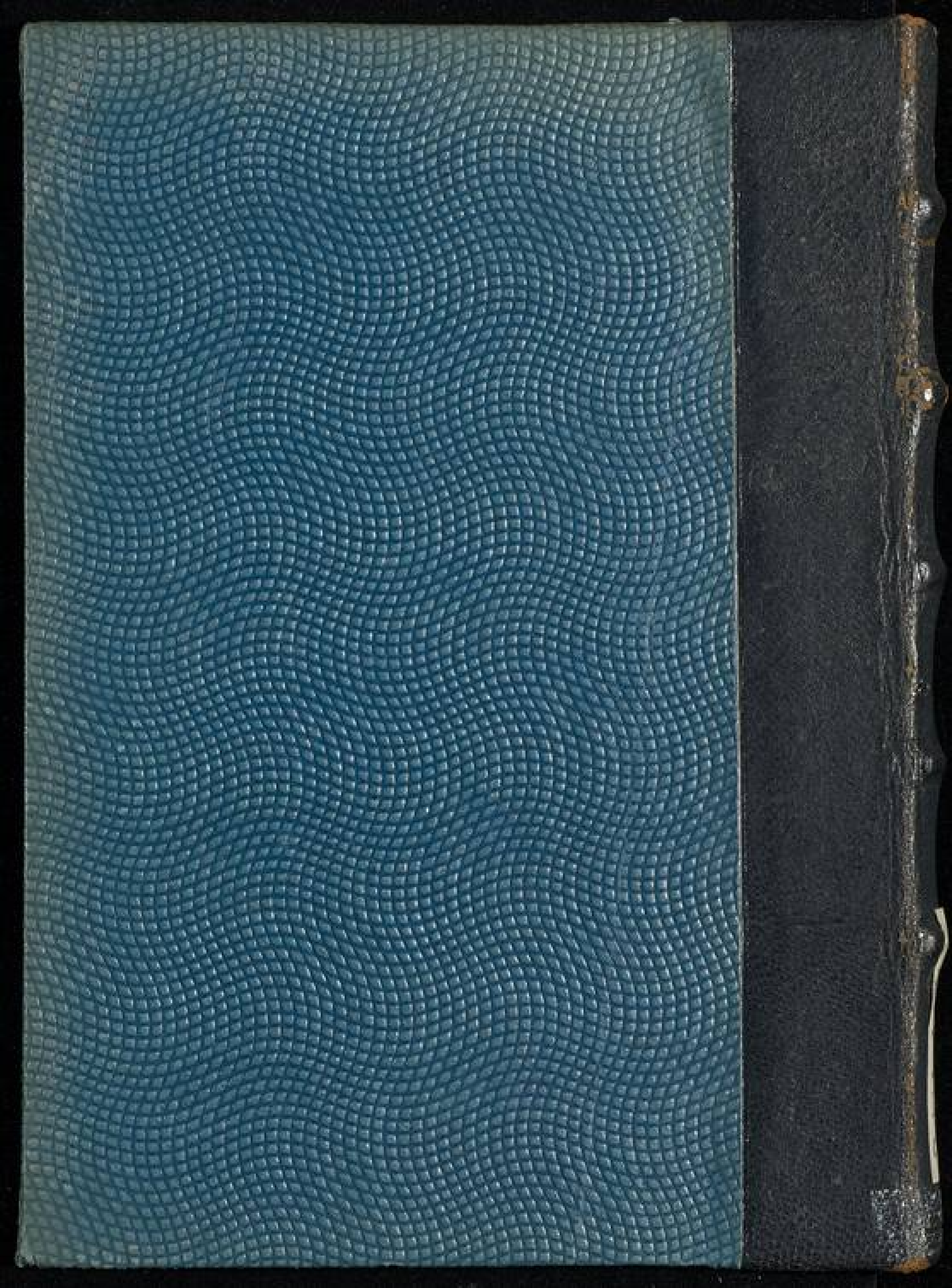


عمر فاخوري

١٨٩٦ – ١٩٤٦ م.

١٣١٤هـ – ١٣٦٦ هـ.

العصر الذي وُلد فيه عمر فاخوري هو عصر عودة الأدب العربي ، بعد الذبول ، الى نضارة الحياة .

هو عصر تلفّت العرب الى روائع مجدهم الأدبي القديم أيام أعطوا الدنيا أبا عثمان الجاحظ وأبا الفرج الأصفهاني والمتنبي والمعرّي وابن خلدون .

وهو عصر اتصال العقل العربي الحديث بالأدب والفكر الغربيين : بفولتير روسو وبلزاك وأناتول فرانس ورومان رولان وتولوستوي وغوركي .

وهو الى ذلك عصر اليقظة العربية الحديثة ، عصر نضال العرب القومي ، عصر الثورات الوطنية التي اطلقها كل شعب

عربيٌ في سبيل التحرر من نير الاستعمار العثماني التركي ، ونير الاستعمار الغربي ، طلباً للاستقلال التام والسيادة ، وتحقيق مجتمع ديموقراطي تقدمي يقوم عـــلى أسس من العدالة والحرية والأخـاء والمساواة ، ويواكب الحضارة في سيرها العصريّ الصاعد .

وهو عصر بلوغ الاستعمار أقصى مراحله ، وعصر بدء انهيار الاستعمار وتدمير أقبح صوره : النازية والفاشية .

وهو عصر اشراق فجر الاشتراكية ؛ وامكان بناء سلام عالمي دائم وتجسيد أبهى أماني البشرية في حياة مطمئنة خليقة بالبشر ، لا تفسدها الحروب ولا الاستعباد ولا العبوديـة ، ولا النهب ولا البؤس ولا الحقد ، حياة يفتح فيها العلم مغالق اسرار الكون وتينع المعرفة أينع ثمارها في اسعاد الكائن الإنساني .

وإننا إذ نتتبع تراث عمر وشخصيته ومواقفه ، نرى أثراً من ذلك كله في أدبـه وفكره وحياته . ونرى ان ليس في أدبائنا المحدثين من كان مثله ابناً لعصره حقاً ، يعيش في عصره خيرَ ما في الماضي وأروع ما في الحاضر وأبهج ما في المستقبل . ويعيش ذلك كله بروح مجدِّدٍ وأصيل ، شغف بالأدب والفن والفكر وأراد لهـا نمواً كالحياة لا يحدّ ولا ينقطع ، وأحب الشعب وأحس همومه ومطامحه في أعماقها وأبعادها ، وأوتي عيناً ينفذ بها الى أقصى الأغوار في لفتات بارعة خاطفة ، كما أوتي

فنّية معبّر عبقري ، ودعابة ساخر لا حموضة في سخره ، بل الفرح كله بالحياة والإيمان بالإنسان ومصيره .

ولم يكتب عمر فاخوري كتباً فقط بل حوّل الكتب الى عمل . ربّى بأدبه وشخصيته ومواقفه جيلاً من الشباب الحر الواعي الجريء .

فإذا فتشنا عن أديب يكون هو أديبنا حقاً على المقياس اللبناني ، والمقياس العربي ، والمقياس العالمي ، في آن ، فلن يكون هو غير عمر فاخوري .

ومن ثمّ لم يكن جائزاً ان تتوارى كتبه أو يصعب مناهلها ، بل وجب ان تبقى موفورة متيسرة ، في طبعة صحيحة متقنة ، يجد اليها القارىء العربي سبيله متى شاء وفي حيث شاء .

وهذا ما أردنا اليه بالعزم على اخراج هذه الطبعة لمؤلفاته كاملة ، علّنا بذلك نؤدي بعض حق علينا للكاتب العلم ، وللقارىء معاً .

ولم نرَ ضرورياً ان نتبع الترتيب التاريخي فبدأنا بـ « الباب المرصود» لأنه في رأينا أغنى آثار عمر بالدلالة على فنّية المعبر العبقري ، وعلى أعمق المحرضات التي بقيت ترجّ نفسه ، ودفعت به في المرحلة الاخيرة من حياته الى مواقف فكرية نضالية ظُنت انقطاعاً ، وما كانت إلا امتداداً لحقيقة سيرته وهمومه .

على اننا لا نريد ، ايها القارىء ، ان ندخل في هذه المقدمة بينك وبين عمر ، ندرس ونحلل . فان لم يكن بدّ فلا بأس بهذا التعريف المقتضب في سيرته وآثاره ، ثم نخلي بينك وبينه تطيف معه بهذا الباب المرصود وتحس مـا يعصف بنفسه من شوق إنساني عميق الى التفلت ، عبر الفن ، من الواقع الخانق .

★

أبصر عمر النور سنة ١٨٩٦ ، (١٣١٤ هـ) في بيروت في اسرة من أعرق الاسر البيروتية ، التي اشتهرت بالعلم .

وفي تلك السنة ، أو قبلها بسنة ، كان أحد أفاضل العصر ، الشيخ احمـد عباس الازهري ، يؤسس مدرسته التي سماهـا « الكلية العثمانية » وأبى الناس أن يذكروها إلا باسم « مدرسة الشيخ عباس » .

فلمـا بلغ عمر حد الصبى ألحقه اهله بهذه المؤسسة الوطنية حيث استيقظ يقظته البكر عـلى الشعور بالعروبة ، وبالكره للسيطرة التركية والحكم العثماني .

وكان من رفاقـه في المدرسة الشاعر عمر حمـد ، والأديب عبد الغني العريسي ، وسواهما من الشهداء الذين اودى بهم ، فيما بعد ، حبل الجلاد التركي ، وكاد يودي بعمر نفسه . ذلك انـه ما كاد يتم دراسته الاولى وينتقل الى معهدٍ جامعيّ في بيروت ،

وينتمي الى بعض الحركات السياسية السرية كـ«حزب الاستقلال» و «الجمعية العربية الفتاة» ، حتى انطلقت مدافع الحرب الكونية الاولى ، فألف بكر مؤلفاته : «كيف ينهض العرب» ، فتعرض لسخط الاتراك وأوشك أن يقع في قبضة الديوان العرفي الرهيب في عاليه ، لولا صغر سنه .

وشد ما كان يأسف عمر كلما ذكر هذا الكتاب لأن أهله أتلفوه جملة كي لا يظفر الاتراك بنسخة منه . فكان عمر يقول بأسلوبه الظريف : «أراد الاتراك إعدامي ، فافتداني المرحوم ابو عمر (يعني والده) بأن أعدم الكتاب»[1]

ثم انتهت الحرب بما لم يتوقعه عمر نظراً لما قدمه الحلفاء من وعود مبذولة في ألفاظ معسولة . فما رأى جيوشهم تطأ شواطىء لبنان وسوريا حتى انبرى لمهاجمتهم بسلاح القلم عاملاً في النشر مع جمعيات ذلك العهد ومنها جمعية «عمر الاكبر»[2] ، فرع «المنتدى العربي» في الآستانة .

فدعته الحكومة الفيصلية الى دمشق ليتولى تحرير جريدة «العاصمة» فيها ، فلبى الدعوة ، وكان من أقرب أصدقائه يوسف العظمة بطل ميسلون وشهيدها .

---

(١) حدثني الكاتب المفكر الاستاذ محمود امين العالم أنه رأى نسخة من هذا الكتاب في دار الكتب المصرية في القاهرة . وقد بدأنا السعي لتصويرها أو استنساخها .

(٢) المراد : عمر بن الخطاب ، ثاني الخلفاء الراشدين .

ثم رأى أن يدرس الحقوق ، فسافر سنة ١٩٢٠ الى باريس ليعود منها بعد سفرتين مجازاً في الحقوق سنة ١٩٢٣ ، متضلعاً من الفرنسية موفور الاطلاع على آدابها ، قد انصهر في نفسه ما هو خيّر وجميلٌ من ثقافة الشرق والغرب ، وعَرَف ان في اوروبا نفسها من يكافحون الاستعمار ، ويتخذون شعارهم : ان شعباً يستعبد شعباً آخر ، لا يستطيع أن يكون حراً !

وفي بيروت ، لبث لحظةً يكتب في السياسة وفيما يسمى موضوعات الأدب الصرف . لكن شاقته دمشق فانتقل اليها واسهم في تحرير صحيفتي «الميزان» و «المفيد» .

على انه عاد في سنة ١٩٢٥ الى بيروت فأسهم في تحرير جريدة « الحقيقة » ، وكان يوقع مقالاته فيها بامضاء « مسلم ديمقراطي » .

وأصدر في هذه السنة كتابه : « آراء غربية في مسائل شرقية » ، وهي ابحاث ترجمها عن طائفة من المستشرقين لم يُعمهم الغرض ولا التعصب كلّ العمى .

وفي السنة التالية (١٩٢٦) أصدر كتابه « آراء اناتول فرانس » : كلمات اختارها من آثار الكاتب الفرنسي المشهور ونقلها الى العربية [١] .

وانتخب في سنة ١٩٢٧ عضواً في المجمع العلمي العربي في

---

(١) عرب عن اناتول فرانس أيضاً رواية « كرانكبيل »

دمشق .

واشترك في تأسيس مجلة ، « الكشاف » وعرّب لها كتاب « غاندي » تأليف رومان رولان .

وبقي ناشطاً في التأليف والترجمة والصحافة حتى لحق بإحدى الوظائف الحكومية في الدوائر العقارية . فلم يكن للوظيفة من أثر حميد في أدبه ، لأنه أوشك أن ينقطع عن الكتابة انقطاعاً تاماً في فترة طويلة .

لكنه ، في سنة ١٩٣٨ ، رأى أن يجمع نخبةً من فصوله ، فيما سماه « الحقبة السعيدة » من عمره ، وينشرها في كتابه : « الباب المرصود » ، فكان ذلك فاتحة عودته الى الحياة الادبية .

ونشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، وبدا كأن مكاسب الإنسانية التقدمية ستطوح بها النازية والفاشية ، وستجدد هذه البربرية الحديثة شباب الاستعمار ، بأشد أشكاله ضراوة ووحشية ، فانبرى عمر لاتخاذ الموقف الذي يوجبه عليه جوهر وجودِه بوصفه ابنا للفكر والحضارة . فانحاز في المعركة الى جانب الديموقراطية ، وانضم الى « عصبة مكافحة النازية والفاشستية » في لبنان ، وكان من أركان مجلّتها : «الطريق» ، كما ترأس « جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي » ، باعتبار الاتحاد العدو الاكبر للنازية والفاشية وسَنَداً متيناً للشعوب المستعمَرة والمظلومة .

وفي سنة ١٩٤٣ ، خاض الانتخابات النيابية مرشحاً مستقلاً عن بيروت ، فدلت النتائج على سعة شعبيته .

وما لبث يكتب ويحاضر في الاذاعة والندوات الادبية والحفلات السياسية ، ويغذي بعطاء قلمه المبدع كثيراً من الصحف والمجلات كـ « الطريق » ، و « صوت الشعب » و « المكشوف » ، و « الأديب » حتى أصيب بمرض الكبد فتوفي في ٢٤ نيسان سنة ١٩٤٦ ، مخلفاً في حياتنا الادبية والفكرية فراغاً موحشاً .

وبقي ضريحه في « الباشورة » ، ببيروت ، محجة يحج اليها أبناء الشعب في مناسبات الذكرى ، كما بقي أدبه وذكره منارة مشعة هادية لعشاق الادب الرفيع في الشرق العربي كله وللمؤمنين بالديموقراطية والعدالة الاجتماعية والإنسان والحرية .

اما آثاره في السنوات الخمس الاخيرة من حياته فهي على الترتيب :

(١) الفصول الاربعة ، سنة ١٩٤١
(٢) لا هوادة سنة ١٩٤٢
(٣) اديب في السوق سنة ١٩٤٤
(٤) الاتحاد السوفياتي حجر الزاوية سنة ١٩٤٤
(٥) الحقيقة اللبنانية سنة ١٩٤٥

★

ولعُمَر بعض آثار أخرى غير التي أتينا على ذكرها في هذه المقدمة المقتضبة ، على انها ستجد موضعها في هذه المجموعة الكاملة ان شاء الله .

رئيف خوري

هـذه فصول تلمّ بموضوع الشعر مـن بعض نواحيه ، اختارهـا المؤلف ممّا نشره في الحقبة السعيدة من عمره ، ما خلا «المأدبة» فهي حديثة العهد جداً ، ويصح ان تكون خاتمـة الكتاب اذا جاز ان نعد مقدمته « الشاعر وابناؤه » التي يستسقي فيها لعهد الصبى . قد لا يكون لها قيمة في ذاتها ، ولكن لها عـلى الاقل قيمة تاريخية ، في حياة صاحبها وحده. اما قيمتها في «حياة الادب » فللقاريء الكريم ان يردّها الى «ما قبل التاريخ» .

عمر فاخوري

الباب المرصود

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الباب المرصود

Fākhūrī, ʻUmar

al-Bāb al-marṣūd ...

عمر فاخوري



نشر وتوزيع

دار الثقافة

بيروت - لبنان

الشاعر وابناؤه

روي ان ابا تمام انشد احدهم قصيدةً له أحسن في جميعها الاّ في بيت واحد ليس كسائرها . فقال له : يا ابا تمام ! لو أسقطت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .

فأجاب الشاعر قائلاً : انا والله اعلم منه مثلما تعلم . ولكن مَثَل شعر الرجل عنده مثلُ اولاده ، فيهم القبيح والجميل ، والرشيد والساقط وكلهم حلوٌ في نفسه . فهو ان أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وان هوي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر ...

ويشبه هذه الحكاية ما يروى عن احد كتاب الفرنسيس ، وذلك انه بعد ان نضج واكتمل فنه ، استمر على اجلال تآليفه الاولى والمبالغة في الاعجاب بها . ويقول الناقد الذي يروي هذه النادرة ان ذلك لم يكن من «رنه بازان» بعامل من الغرور الادبي بل بباعث من الحنان الابوي . «ولقد اخطأتُ ذات يوم وسألته : أي قصصك افضل عندك ؟ فاخذته الحدة وأجاب بقوة قائلاً :

« – الحقيقة هي ان كل كتبي – كلها – وُضعت واشترك

في وضعها قلبي . . . خرجت من صميم نفسي فلا أستطيع أن أفضّل بعضها على بعض . »

*

هـذا المساء ، في إحدى ساعات الملل التي يتساءل المرء فيها وقد هادنته الحياة: «تُرى، ماذا يراد بنا» في هذه الدنيا ، وهل لوجودنا غاية ؟ » يتساءل متبرماً بأمسه ويومه وغده ، دون ان يوفق الى جواب او شبه جواب عـلى سؤاله ، بل السؤال الذي طرحته سآمته على الوجود وعلى الحياة . . .

جلست الى منضدتي مضرباً عن الاعمـال والجهود الباطلة ، ويداي تعبثان جادّتين في البحث عن لا شيء . وهكذا عثرتْ يمناي، ويسراي لا تعلم ، بدفتر أسوَد صغير هو بعض ما بقي لي من عهد الصبى . اخذت في تقليب أوراقـه الرثـة الصفراء ، فانبعثت منها رائحـة القدم والبلى كأني دخلت غرفة أحكم قفل أبوابها ونوافذها وهُجرت زمناً مديداً .

ودفتري هذا، على ضآلة حجمه ، كالقدح الملآن لا تزيد على ما فيه قطرة الا طفح: ليس بين سطوره وهوامشه موضع لكلمة. فيه آراء وأبيات شعر وخلاصات كتب ، بالعربية والفرنسية والانكليزية، وبعض مفردات الاسبرانتو... وفيه أيضاً خواطر لي وشروح وتعليقات، ولا فخر! فهي التي عقدت الآن لساني

وكمّت فمي، إذ هممت بأن أنادي، على جاري العادة في مثل هذه الاحوال :

– سقياً لك يا عهد الصبى ورعياً !

من خواطري في ذلك العمر السعيد بجهله وغروره، وإيمانه وحماسته، ما أنقله الى القراء بين أهلّة كأني أنسبه لآخر . . . قال رحمه الله :

«عاطفة الشاعر في بدء حياته الشعرية :

«ترددت زمناً في نظم الشعر خشية ان لا يتسع له ما فيّ من خيال . ثم اقدمت . الاسباب : ما رأيته عند الغربيين وضيق نطاق ما طالعته في كتب العرب، وعلى الأخص المعاصرين منهم. لقد رأيت هؤلاء غير جديرين بأن أقول فيهم الكلمة التي قالها أحد كتاب الفرنجة في بعض العصور الزاهرة: إذا لم أكن عظيماً فاني على الاقل معاصر للعظماء !

«هل هذا غرور؟ ربما . . .

«بعد أن كتبت أبياتاً معدودة من قصيدتي الاولى بقيت أياماً لا أجرؤ على الدنو منها بزيادة أو تنقيح، أنظر اليها كما ينظر المحب الى حبيبته، مع علمي بانها غير تامة وان فيها ما يجب بتره بحق وعدل .

«ما اشبه هذه العاطفة بعاطفة الاب والام أمام «طرفتهما» في اسبوعه الاول! يعلمان ان شد العصائب على أعصاب الطفل

الرطبة مما يقويها، ولكنهما يخافان أن يؤلماه ويسمعا بكاءه . . . بيد انهما بالرغم من ذلك سيقدمان بعد الاحجام . . .

«واني لمقدم أيضاً على شد أعصاب طفلي (القصيدة) !

في ٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٣».

*

هـذا ما جـاء في ذلك الدفتر الصغير ذي الاوراق الصفراء كأوراق الخريف. وهو لفتى "كان"، فيما مر من أعوام ، لا يعرف السآمة المتسائلة : « ماذا يراد بنا في هذه الدنيا؟ » يؤمن بأشياء كثيرة، منها انه سوف «يجدّد» الشعر العربي، لم يكد ينظم شعراً. لقد جنت عليه اليوم ، فبعثته من مرقده ، المقابلة بين ابي تمام الشاعر العربي ورنه بازان الكاتب الفرنسي اللذين اتفقا على بعد الشقة بين عصريهما ، وأجمعا على القول بأن القصائد عند ناظمها ، والكتب عند مؤلفها ، هي كالابناء عند الوالد الحنون ... ليس الأمر بذي بال، وهو لن «يكسر» بيتي الشاعر الانكليزي كبلنغ القائل :

«الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقي الاثنان ! »

لكن نبشنا قبر ذلك الفتى المسكين الذي كتب فيما بعد – ربما بعد أيام معدودة – على هامش خاطرته هذه العبارة ، قال رحمه

الله: ومن هنا قول العرب عن الشاعر المبتكر «هو حسنُ التوليد» ومنه أيضاً تسميتهم المعاني «بنات الفكر»، ثم ختم بسذاجة تفوق حد الوصف قائلاً : ما أعظم فرحي بوقوعي على هذه المقارنة الجميلة !»

*

سقياً لك يا عهد الصبى ورعيا ! لقد كنت تسكر بزبيبة...

١٩٢٦

الباب المرصود

شهدت ليلة أمس في أحد سينماوات البلد فلماً يقص علينا القصة الأبدية : نفسان فاضلتان – رجل وإمرأة، تجزيان في الختام، بعد عذاب شديد ونصب طويل، بالهناء المقيم والراحة الشاملة. وكان الفلم مؤثراً – لو لم أجد فعله في نفسي لوجدت برهان ذلك في الدموع التي ذرفها، ذات اليمين وذات الشمال، فتى من بني قومنا وعجوز من نساء الافرنج . لست أزعم اني كنت كالجزيرة بين الفرات ودجلة حتى خشيت الطوفان . ولكني أشهد ان صاحبي الفتى وجارتي العجوز بكيا . ولقد خيل إليّ ان الاقدار ساقتني نحو محرومين من نعم الحياة ، فهممت ان آخذ بيده اليسرى ويدها اليمنى فاعقد بينهما، لولا ان منعتني كراهتي الدخول فيما لا يعنيني رحسناً فعلت !

أما الفتى فما أوشكت القصة السينمائية ان تنتهي ويرجع النور الى القاعة حتى رأيته يبادر الى مسح عينيه كالمستحي من ضعف نفسه، الخائف من سخر الناس الذين سيعلمون انه «صدّق» ووقع

في حبائل . . . الفن . وأما العجوز فأني رأيت في أعلى خديها زهرتين ذابلتين تلمع فيهما قطرتان من ذلك الندى الحي ، وكانت اكثر تمهلاً في كفكفة عبرتها، كأنما تود لو يستمر هذا السحر قليلاً، او ترجو ان لا تستيقظ من ذلك الحلم .

*

هكذا الفن، سواء الموسيقى والشعر وغيرهما، يخرج المرء عن طوره الى طور ثانٍ وينقله من عالمه الى عـالم آخر . ولعلّ في البشر الى هذا الانتقال حاجة طبيعية تلح عليهم حيناً بعد حين، فهم يكدّونها بمختلف الوسائل التي استنبطت من أقدم الأزمنة . وهل الأديان التي تحمل الأنفس من هذه الدنيا المنظورة الى تلك الآخرة المغيبة بمـا فيها من جنة ونار ، الا المظهر الأسمى لتوق النفوس وشوقها وحنينها الى صور غير المرئيات، وحياة كما يقول اناتول فرانس «تُصلح فيها مساوىء هذه الحياة ويُكفر عن ذنوبها ؟ » هل الأديان الا وسيلة الى كفاية تلك الحاجة الطبيعية الدائمة في هذه الانفس الساخطة المتبرمة ؟ ولا عجب . فالبداهة هي ان البشر ينشدون السعادة العظمى، وانهم لا يوفقون اليها في الواقع الذي يعرفونه ويحسون نقصه وعدم موآتاته، وقد حسبوا انهم يحظون بها — اين ؟ في غيبوبة عن هذا الواقع ونسيان له وخروج منه .

ان البشر في حياتهم هذه لِكَمَرِفاقِ سفرٍ استيقظوا بغتة على

غير موعد ، في حجرة حبيسة الهواء خابية النور ، تتجاوب في نواحيها الاصداء المنكرة وتتطاير الاشباح المخوفة : هـذا يبيع وذاك يشتري، هذا يتزوج وذاك يطلق، هذا يلعن وذاك يستغفر، هذا يولول وذاك يغني . . . فهب كل واحد من هؤلاء المغضوب عليهم ، ضيق الصدر طائر البصر ، الى كوة من كوى الحجرة يفتحها ، ليطل منها على عالم مسحور تسبح فيه الملائكة وتلمع الدراري وترقص الجنيات الحسان – في مروج من سندس، تحت سماء من لازورد، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة .

ولذلك رأينا بعضهم يدمن الخمر مؤمنـاً بباخوس او يشم الكوكايين واجداً فيه ريح الجنة، ورأينا البعض الآخر يقبل على الحشيش، او الأفيون الذي زعم الكاتب الانكليزي «دو كوينسي» في دعائه المشهور الى هذا الرب المعبود، انه قادر على أن يشيد، بابرع صنعة من فيدياس وابلغ فناً من براكسيتيل ، مدناً ومعابد تفوق بابل وارم ذات العماد ، عظمة وثناء : «انت وحدك تهب الإنسان هذه الكنوز، وبيدك وحدك مفاتيح الجنان، ايها الأفيون العادل القدير ذو السلطان! » وكل هؤلاء يسلكون في مشارق الأرض ومغاربها سبلاً مختلفة الى غاية واحدة: السكر، او الغيبوبة التي تُنسى فيها هموم الحياة اليومية. وليست تلك السموم القاتلة الا مفازات يقطعونها الى عالم الغيب والغفلة والطمأنينة، او كوى يفتحونها في الحجرة الحبيسة الهواء ، الخابية النور ، التي تتناكر فيها الاصوات وتتزاحم الاخيلة .

والحب متى يبلغ أشده ويصل الى ذروته ـ ألم يقل العارفون انه يكون حينئذ كنشوة السكارى يغيب بها المرء عن نفسه ، ويغفل عما حوله، وينسى حاضره وآتيه، حتى ليحسب انه يضم الى صدره حبيبه، حبيبه بعينه، وهو لا يضم، لو يعلم، الا صورة يتخيلها او مثالاً يتمثله ، في برزخ بين الموت والحياة ، بل حيث لا موت ولا حياة ! هو الفقير فإذا به الغني ، وهو المنكود فإذا به المجدود، وهو في الارض فإذا به في السماء .

*

سئمت نفس «بودلير» الشاعر الفرنسي فطفق ينقلها من قطر الى قطر ، وهو يمنيها بالنعيم والطمأنينة وهي لا تزداد الا قلقاً وملالة ولهفة الى الرحيل. وكان لا يفتأ يسألها في احدى قصائده المنثورة : «الى أين تريدين يا نفسي ؟» فلما فرغت حيلته ونفد صبرها أجابت قائلة: «حيثما كان، ولكن في خارج هذه الدنيا!» ولبودلير قصيدة هي آية في الابداع عنوانها «الرحيل» قص فيها قصة تلك النفس الظامئة ابداً، ووصف جهوده للفرار من ذاته. لقد عاذ الشاعر بالفن والجمال والطيوب والموسيقى ، لأنها على حد قوله «لقلوب ابناء آدم أفيون إلهي»، ولكن لم يجده عياذه بها جميعاً. فلجأ الى الحب والدين ثم جرّب كل الوسائل التي اهتدى اليها البشر لتنويع اللذة وارواء النفس، فإذا بالسعادة في مراحل هذه الهجرة الكبرى رغم بهجة الطريق، سراب خادع لا يتلاشى في أفق الا ليظهر في أفق أبعد فأبعد . وأخيراً عرف «الافيون

العظيم» – وله كتاب في وصف الجنات، لا جنات عدن ، بل «جناته المصطنعة » فقال لنفسه : إذا كان النعيم في الموت ، في الموت وحده، فليكن المرحلة الأخيرة يا نفسي ! وهنا يلتقي بودلير وأفيونه بالبوذيين و«نرفانا» هم ، لتتم كروية الارض ... وان قوافل البشرية المتنقلة من ازل الآزال الى ابد الآباد، في سبلها المختلفة، لتقف جميعاً عند غاية واحدة مزدحمة على عتبة الباب المرصود ، حاسبة ان السعادة الكبرى والطمأنينة العظمى خلف الباب ، متسائلة في حيرة ولهفة :

– ولكن من، ترى، يفك الرصد ؟

*

ما اكثر ما رأيتني كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بغتة أمني نفسي بالنعيم لأني ممسك الى صدري كتاباً ، اسرع في خطاي كأني وحبيبتي على موعد لقاء !

١٩٢٦

كنوز الفقراء

بقرة، وليست كالبقر ضخامة جسم، بل هي أقرب الى العجل الصغير. تلمع عيناها في الليل البهيم كأنهما جمرتان او نجمتان. مسرجة بالذهب، نعالها وخلاخلها من ذهب. وعلى ظهرها عدلان ملئا بالدر والياقوت والحجارة الكريمة. تجيئك في ساعة متأخرة من الليل فتناديك قائلة:

– تعال يا فلان وخذ نصيبك!

فلا تخف ولا توقظ أحداً من أهلك النيام. تقدم نحوها رابط الجأش وانزع نعالها وخلاخلها وسرجها، وافرغ العدلين من كنوزهما، ثم املأهما بما تيسر، والافضل ان تجعل في احدهما خبزاً وفي الآخر ملحاً: علامة المودة والشكران. فهي تمضي في سبيلها تاركة في دارك الذهب والدر والياقوت والحجارة الكريمة. طوبى لك فأنت الغني السعيد!

... وفي النصف الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة زارت البقرة «حاملة النصيب» جدّة والدي السيدة صفية وكانت رحمها

الله، «سبعينية». فسمعت طقطقة النعال ورنين الخلاخل على درجات السلم، فنظرت من ثقب الباب الموصد عليها في حجرتها، فرأت البقرة المذهبة تخطر في باحة الدار، وعيناها تضيئان كأنهما جمرتان او نجمتان، وهي تنادي بصوت أشبه بالخوار:

– تعالي يا صفية وخذي نصيبك!

اما المرحومة فجمدت في مكانها معقودة اللسان. وأما البقرة فقد نادتها ثلاثاً ثم انصرفت كالمستكبرة، انفة من هذا الجبن الشديد الذي ما عليه مزيد! ولكنها انتقمت منا بأن تركت على إحدى درجات السلم نعلاً من نعالها الذهب، دليلاً على الثروة التي لم تمتدّ يد لأخذها، وباعثاً على الحسرة الدائمة. ويُروى ان جدتنا قالت إذ انطلق لسانها هذه الكلمة المأثورة: «الشحادة، ولا السعادة!». وهكذا كنا ولم نزل فقراء، عزاؤنا الوحيد، بل عزائي أنا وحدي هو اني كدت في النصف الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة اكون، في ظهر الغيب، غنياً، فإذا لم اكنه فذلك لأن جدتي السيدة صفية، عليها رحمة الله، ما أرادت...

بهذا وأمثاله كنا نتسامر في إحدى ليالي الشتاء ونحن، كباراً وصغاراً، جلوس حول الكانون صديقي المؤنس المحيي الأمين، وبغتة شهدت في هذه الغرفة الصغيرة، كيف تخلق دنيا غير دنيانا يقطنها أقوام غير أقوامنا، دنيا عجيبة ملأى بالأرواح الخيرة والشريرة، تفيض منها على دنيانا الأعاجيب، وفيها يجد العامة

تأويل كل الأسرار. وأحسست كأن هذا الجو الذي كنت أحسبه مهجوراً هو على الضد من ذلك مأهول لا تكاد تجد فيه، من شدة الزحام، شبراً واحداً لم يحله جني أو عفريت .

وليس أعجب ولا أبلغ دلالة من الصلة التي جعلها العامة بين عالمنا وذلك العالم. أأقص عليك قصة «الداية» التي دُعيت ليلاً الى امرأة في الوضع، فاعترضت سبيلها سيدة محجبة سألتها أن تشعل لها شمعتها المطفأة، فلما تناولت الشمعة من يدها اختفت السيدة بين الأرض والسماء، ونظرت الداية فإذا الشمعة «اصبع مخضوبة بالحناء»؟

أم أقص عليك قصة الرجل الصالح الذي التقى ذات ليلة بالجنية العروس، المحلاة بالذهب من قمة رأسها الى قدميها، فقالت له: عرّني من ثيابي وهي لك ! فلما ذكر انه ينبغي أن يخلع عنها كل ثيابها وينظر اليها وهي عارية، حوّل بصره لأنه لم يكن امرأ سوء، وقال لها : استتري يا اختي . . . استتري! ثم انصرف، لم يغنم ولم يأثم ؟

أم ماذا أقص عليك ؟ لقد انتقلنا من اسطورة عجيبة الى الى اسطورة أعجب ، ومن اقصوصة جميلة الى اقصوصة أجمل ، حتى خيل إليّ ان ليلتنا هذه ليلة « شاردة » من طرفة الشرق الكبرى ، أعني كتاب الف ليلة وليلة . . . وأخذت افكر فيما فكرت فيه من قبل إذ كتبت «الباب المرصود» .

ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، او تصور وجود غير

هذا الوجود العادي ، وقفاً على وحي الأنبياء وخيال الشعراء . فإن للعامة في هذا الخلق والابداع اليد الطولى ، بل لعل الأنبياء والشعراء يستقون من هذه الينابيع التي لا تفتأ تفيض في كل عصر ومصر، ولا يغيض ماؤها أبداً: الآداب العامية. فإذا كان في الأمر بعض الشك فإن الشعوب ، بالأقل ، تلتقي مع أنبيائها وشعرائها في صعيد واحد لكفاية الحاجة الإنسانية العامة الدائمة الى الخوارق والأعاجيب، أي الى كل ما هو «في خارج» هذا العالم ونواميسه المعروفة وحقائقه المألوفة . وان في الآداب العامية او «الفلكور» كما يسميها الافرنج لطرائف شائقة ممتعة غزيرة المعاني، سواء الأقاصيص والأمثال أم الأساطير والعقائد، توفر على العناية بها، جمعاً وترتيباً وتأويلاً، كثير من اختصاصي الغرب ، اعتقاد انها فنون غير الفنانين وآداب غير المتأدبين ودواوين غير الشعراء، لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب، بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها ، فهي كالبقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء .

... وأسرّت إليّ أكبرهن سناً قولها :

– هل تعلم لماذا اورثت فلانة بنيها (وذكرت اسرة معروفة في البلد) سوقاً برمتها هي السوق الفلانية؟ ذلك لأن البقرة زارتها فأخذت منها نصيبها . . . والا فمن أين لهم هذه الثروة الطائلة ؟

وقالت أصغرهن سناً وفي عينيها الخوف والرجاء :

– إذا جاءتني البقرة، هذه الليلة ، ونادتني: يا سلوى ، قومي وخذي نصيبك! فسأقول لها من تحت اللحاف: يا بقرة أنا أخاف لأني صغيرة، فضعي نصيبي على عتبة الباب، أرجوك !

ولكن أم سلوى ضمت صغيرتها وعوذتها قائلة :

– بسم الله الرحمن الرحيم !

١٩٢٦

حنين شاعر الشعب

١

مقدمة مرسلة

صديقي حنين

لا أحييك وأنا كل يوم أحييك . . . وبعد فما إخالك نسيت كلمة من «رنان» قرأناها منذ أيام في كتاب مختاراته : «الادب الحق في زمن ما، هو الذي يصوّر ذلك الزمن ويعرب عنه». كلمة جـامعة من فصل قيّـم في حقيقة الادب وعلاقته بالعصر — في الاصول التي منها يستمد ميزات الجمال والتأثير والبقاء .

وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها، لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية، بل انها في هذا الثوب المنوع الألوان البهيج الزي ، لأحسنُ استيفاء لشروط البلاغة في المعنى والفصاحة في التركيب ، من بدائع كثيرين من ادباء العصر الذين

يحيون في منظرمهم ومنثورهم على هامش الحياة ، فقصاراهم إذن ان ينطرح «أدبهم» جثة على هامش الادب الحق الذي لا يصدر، سواء كان فصيحاً أم عامياً، الا عن مورد واحد .

أما الجثة فيبالغون في تنميقها وترويقها وتأنيقها ، لكنه «تواليت» الميت الذي لن يخدع طويلا. لن يخدع في صفوفنا هذه الفئة الفتية التي تطمع فيا هو خير من نسخ الاقدمين وأعسر من تقليدهم، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة .

*

هذه الجنة الخراب - وطننا ، بما يسمع في جوه وفي بحره ، على اطواده وأنجاده، ببواديه وحواضره، وحول غدرانه الراكدة وسيوله الراكضة، من همس وقصف ، وتهليل وعويل، وحفيف وعزيف، وصيحات وأصداء .

وهذه العروس النائحة — حياتنا ، بما فيها من مسرات تعقب حلاوتها مرارة الاحزان ، ومن آمال خائبة لا ترضى استسلاماً للقنوط، ومن المخازي المتلبسة بالشرف، والشرف الأشبه بالعار، ومن سيوف مفلولة بأيدٍ مغلولة .

وهذه الغانية المهجورة لأنها لا تعرف الدلال — عاميتنا ، بنكاتها الطريفة وحكمتها الحصيفة ، بحقائقها الجارحة وأساطيرها الساذجة، وبمولدها ومحدثها من أوضاع ومفردات دقيقة الدلالة، وتراكيب وأساليب طلية مأنوسة .

وهذه الشجرة الشرقية الغربية - ثقافتنا، بما تحمل من هدى الى حسن الاختيار، ومن حث على فضل الانتقاد ، ومن توفيق الى ثواب الإصلاح ...

*

تلك جميعاً أيها الصديق ، هى الينابيع التي تفجرت باغانيك الجميلة وضعاً ، الرقيقة لحناً ، الرفيعة مقصداً . مستقر الحقيقة وملعب الخيال ، ملقى الطبع الصادق والصنعة الجيدة . وهل أدلّ على ذلك من اعجاب العامة والخاصة بها على السواء ، وطربهم لها في كل ظرف وبكل ناد ؟

لو كنت أيها الصديق، في ديار الغرب لكان الكلام في رسالتي هذه على نوع من أنواع الادب والموسيقى له شأنه ... ولكن على هذا النوع فحسب. بيد اننا لحسن حظك وسوء طالعنا، في بلاد أكثرُ من فيها المتأدبون وأقل ما فيها الادب الحق. لذلك عددت نفسي سعيداً بتقديم هذا النموذج العالي لا للأغاني الشعبية ، بل للأدب على الاطلاق . فقد جئت لتذكرنا بانه ينبغي ان تكون الصلة بين الادب والحياة غير منقطعة حيناً من الاحيان ، وان يفتح مسيل بين الفصحى الجامدة باهلها والعامية التي تعين على تزيينها ،اسوة باللغات الحية. ولا احسب هؤلاء الذين يريدون سد هذا المسيل بايديهم الا كأولئك الذين أرادوا حجب الشمس

باكفهم حجبوها عن أعينهم وظلت تضيء . ليسوا أقوى من الزمان، وطبيعة العمران .

هذا ، والله يحفظك لأخيك ...

[مقدمة لأغنية باللهجة العامية نظمها عمر الزعني بعنوان : صندوق العجـايب .]

١٩٢٤

٢

حنين والشعر القومي

حنين – رجل الوقت، لم يؤت احد في الأعوام الاخيرة مثل شهرته الواسعة في عالم الادب، وفي غيره أيضاً. ذلك انها لم تقتصر على العامة الذين ينظم بلهجتهم الحية ويحدثهم عن أعلق الاشياء بنفوسهم وامسها بحياتهم، فقد عرفه الخاصة، بل ربما كان هؤلاء اسبق الى معرفة القيمة الفنية الجليلة في أغانيه الجميلة. كان في إحدى قرى الجبل، صيف عام ١٩٢٥، ينشد نفراً من اخوانه. فسمعه «الريحاني» لأول مرة، فمشى اليه قائلاً: «يا رجل! ألست الزغبي؟» قال: «بلى.» فقال له: ما أنت بغنٍ: انت مربٍ.»

*

يحتاج كل عصر الى مَن يشهد له او عليه، وأغاني حنين هي الشهادات الصادقة على زمن لا يؤدي ادبه الزور هذه الخدمة الواجبة. هي شهادات على العصر وعلى اهله تكشف عن عوراتها ومساوئها حتى ليمكن القول ان حنيناً هو دائماً من «شهود الاتهام». ولكن الاصح أن يقال انه اعظم الهجّائين بين شعرائنا، لأنه استحدث نوعاً من الشعر الهجائي هو الهجاء الاجتماعي.

وإذا كان حنين مربياً فليس كسائر المربين ، او هو مرب يتوسل الى مطالبه بوسيلة عجيبة : السخرية، ونِعمَ الوسيلة هي! في مقدورك ان تقول ما تشاء لأيٍ كان، فتذمه اقذع ذم تشتمه اقبح شتم، ولكن على شريطة ان تضحكه، فانك اذا اضحكته جردته من سلاحه . ألم تغالب ذات يوم من هو اضعف منك – ولدك الصغير مثلاً – فغلبك لأنك تضحك وهو يجد؟ كذلك الامر في المعنويات. فإذن لا عجب لحنين يستغل فينا هذا الضعف الإنساني، فيغلبنا ونحن نضحك وهو يجد . بل لو لم يكن الا الضحك لكفاه فضلاً : إنا لفي عصر نظلم الذين ينعمون علينا بالضحك اذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور وامثاله من المحسنين .

*

لحنين كرامات في حياته وما هو من الاولياء، فان كرامات هؤلاء لا «تظهر» في الاغلب إلا بعد وفاتهم . لقد سمعت احدهم – لا احد الاولياء بل «احدهم» – يقول لصاحبه امس وهما يتحدثان عن الفرنك وصعوده بعد ذلك الهبوط السريع :

– يا ما ارتفعت وزارات وسقطت وزارات ، وعُملت مناورات ونظمت ميزانيات ، فذهب كل ذلك باطلاً . ولكن ما كاد حنين يصرخ في اغنيته الجديدة من قلب مجروح، قائلاً : «حاسب يا فرنك!» حتى وقف بمثل كن فيكون .

(يسمع الليل في الصبح منه ياليل ! فيصفي مستمهلاً في فراره) وقد «سمع» الفرنك منه، على ما يظهر .

هذه كرامة. ولكن الاعجاز هو، لا مراء، في صنعة حنين. لست اعني صنعته الموسيقية ، فاني في الموسيقى من الذين يعلمون انهم لا يعلمون ، بل صنعته الشعرية . الى القاريء ترجمة قطعة للكاتب الفرنسي «بيار لويس» من ديوانه المشهور «اغاني بيليتيس»:

«لما رجع إليّ سترت وجهي بكلتا يدي . فقال لي: «لا تخافي ولا تحزني ، فمن رأى قبلتنا؟» قلت له: من رآنا ؟ الليل والقمر، والنجوم والسحر. لقد نظر القمر الى خياله في البحيرة ، فحكى للماء الذي تفيء عليه اغصان الحور، وماء البحيرة حكى للمجذاف، والمجذاف حكى للمركب، والمركب حكى للصياد. واحسرتاه، واحسرتاه ! ليت الامر انتهى عند هذا الحد . ولكن الصياد حكى لامرأة! حكى الصياد لامرأة فإذن سيعلم بذلك أبي وأمي واخواتي وكل البلد »

من هذه الاغنية اقتبس حنين أغنيته «كلمة حكاها القمر...» المنشورة في هذا الجزء . وما إخال القاريء الا قائلاً معي ان الاقتباس يفضل الاصل من كل الوجوه. ولكن احب ان ادس في المقابلة عنصراً آخر قد يكون في ذكره بعض الفائدة، وهو هذه الاغنية الساذجة التي تضحك بها علـى ذقوننا ، إذ نحن في مهد الطفولة الحالمة، امهاتنا اللواتي يردن ايهامنا انها قصة عجيبة

ملأى بالحوادث والوقائع . اقرأ أيها القاريء ، باللهجة العامية – وكأنك تقرأ شعراً موزوناً – هذه الآية من ديوان الطفولة :

«حدُّوته ما حدُّوته ! طلع الشيخ عالتوته . والتوته بدها فاسه . والفاسه عند الحداد . والحـداد بدو بيضه . والبيضه بـ.. الدجاجة . والدجاجة بدها قمحة . والقمحة بالعليّة . والعلية مسكره . والمفتاح مع ابو صلاح : راح ليجيب حملين تفاح . نقى المليحه المليحه ، عطاني ياها . والمتخه المتخه ، ضربها بركبتو ، طلعت من لحيتك للحيتو!» عفواً ايها القاريء . . .

هذه «احدوثة» قد يكون لها معنى يغيب عنا . ولا غرو فان من الاشياء ما يفهمه الصغار ولا يفهمه الكبار . ومن يعلم مـا الاحلام التي كانت تلك «السخافات» تحمل عـلى غاربها نفوسنا . ولكن ألم تر كيف ان حنينـاً الذي ينظم اليوم «احدوثاته» للكبار ، اختار هذا القالب الشعري العامي ليودعه اقتباسه من قصيدة غربية ؟ وهنا الاعجاز في صنعته التي يسمو فيها ما شاء ، ويهذبها ما وجد الى تهذيبها سبيلاً ، لكنه لا يترك «الارض» التي منها نشأتنا واليهـا معادنا ، فإذا استمد عنصراً غريباً تمثله اولاً ، ثم زفه الينا وكأنه بضاعتنا ، وهكذا تحيا الآداب القومية في الامم .

١٩٢٦

٣

العمود الهادي

للكاتب الانكليزي «دِكنز» قصة عنوانها: «مارتن تشوزلويت» استهلها بهجوم مر للرذيلة التي كان يدعوها اذكياء الانكليز «رذيلتنا القومية» اعني : الرياء . وفي تلك القصة وصفُ رجل اسمه المستر بكسنيف ، لا يزال الى يومنا هذا مضرب المثل في الرياء الإنساني عند الانكليز ، كما ان «ترتوف» لا يزال منذ مثّله «موليار» على المسرح الفرنسي رمز الرياء الديني عند الفرنسيس.

ان بكسنيف هذا «يعطيك من طرف اللسان حلاوة» ويخفي تحت جمله المنمقة المفعمة كرماً وحناناً ، اقسى أنواع الاثرة وأفحش مظاهر البخل . ويقول دكنز ان هذا الرجل من «الحكم الفاضلة» اكثر مما يحتويه كتاب مدرسي في الاخلاق ، وان بعضهم يشبهه بالعمود الهادي الذي يرشد ابناء السبيل الى الجهة التي يجب ان يمشوا فيها ، لكنه لا يمشي قط في تلك الجهة، لانه العمود !

ولقد كان في نية دكنز باديء بدأة ان يجعل في الصفحة

الاولى من كتابه هذه العبارة الموجزة البسيطة: «المكان: بيتكم. الاشخاص: انتم.». لكنه عدل اخيراً، ولعله أصاب فيما فعل. فان الانكليز قلما يرضون عن الذين يصارحونهم بالحقائق الموجعة المزرية، أو يصبرون على تسفيه رذائلهم ونقائصهم، ولو على سبيل المزاح. كذلك فان القراء لم يتقبلوا تلك القصة قبولاً حسناً، ولم يتهافتوا على قراءتها تهافتهم المعتاد على تلقف مؤلفات دكنز السابقة. كان القصاص الانكليزي ينشر قصصه في أجزاء متتابعة، وكان يبيع ٧٠ الف نسخة من كل جزء، فلم يبع من «مارتن تشوزلويت» إلا ٢٠ الفاً. وهكذا الزمت الامة البريطانية كاتبها المختار، الحد الذي لا ينبغي ان يتجاوزه، فلزمه صاغراً.

*

ما أكثر الاعمدة الهوادي في مجتمعنا! هي قائمة في كل طريق، بل في كل عطفة طريق. ولو كانت هذه الاعمدة تهدي حقاً، لم يكن بين الامم أهدى منا سبيلا، فان مجتمعنا غابة من الاعمدة البكسنيفية الترتوفية، لا يدعك بكسنيف واحد الا ليسلمك الى ترتوف آخر، حتى لو ان امرأ أراد ان يصل فعلا لما استطاع! والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه.

قلت: ما أكثرها في مجتمعنا! والآن أقول: ما أقلها في أدبنا! والاصح أن يقال انها غير موجودة البتة. غير موجودة، لا هي ولا غيرها. فان أدبنا مشغول بما لا أدري عن تمثيل نواحي الحياة، وتصوير اخلاق الاحياء أدب لفظي، لا أدب حي.

أليس عجيباً ان لا تجد في غير أغاني حنين العامية تمثيلاً صحيحاً لنواحي حياتنا ، وتصويراً صادقاً لأخلاقنا الاجتماعية ؟ في هذه الاغاني يجد العامة صوراً واضحة بارزة لآلامهم وآمالهم ومختلف أحوالهم ، ونكاد لا نجد شيئاً من ذلك فيما عداها، حتى لو ان مؤرخاً بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد أدبنا على زماننا ، أو بالتماس صورة لعصرنا في أدبنا ، لكان أكثر تعويله على ديوان شاعر الشعب حنين. لولا حنين لكان هذا العصر أبكم، ليس فيه من يشهد له أو عليه . هو إذن شاعر العصر ...

في أغاني حنين ، كما قلت في كلمة سبقت ، كثير من الهجو لكثير من الرذائل والنقائص التي يصح أن ندعوها «رذائلنا ونقائصنا القومية» . ولا ينكر ان هجوه، على الاغلب، مر شديد. فهو يرمي الناس بأوجع القول وأنفذ السهام، والناس يضحكون ويتقبلون أغانيه أحسن القبول . قد يغص بعض الضاحكين بضحكهم أو تتجهم أساريرهم بابتسامة صفراوية، ولكن اكثرهم يستسلمون لضحك حر طليق ، أو تزدان وجوههم بابتسامة غير متكلفة ، وكأني بهم يقولون للسهام التي تتساقط عليهم : «حوالينا ولا علينا !» ويومئون الى جيرانهم من طرف خفي غامزين، عملاً بالوصية المأثورة : «جارك قبل نفسك» في الضراء، لا في السراء !

١٩٢٨

٤

حنين والهجو الاجتماعي

لقد استحدث حنين نوعاً من الهجو هو الهجو الاجتماعي . كان شعراء العرب يهجون أشخاصاً بعينهم لمآرب وحزازات خاصة ، ولا يهمهم أكانوا في أقوالهم تلك صادقين أم كاذبين . فجاء حنين وتناول يهجوه رذائل الناس ومساوئهم يصورها لنا ويضحكنا منها ، ولا يهمه الا ان يكون في وصفه صادقاً على الجملة . ليس الذنب ذنبه إذا قام يطلب مادة لفنه الشعري فوقعت يده على هذه القروح المصدة ، وليس الذنب ذنبه إذا كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فمثلها لنا بصورة لطيفة بل «ملطفة» . من قال ان الفن رداء يجب أن يُطرح على سوأة نوح في غفلته ، ومن قال ان الفن طبيب جاهل دجال يخدع العليل عن علته ؟

كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب ، وما زالا ، اليدين القويتين الاثيمتين اللتين تأخذان بعنق الفن فتخنقانه خنقاً .

كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب ، وما زالا ، السدين

المنيعين المخوفين اللذين يمنعان «الفساد» ان يناله «الاصلاح» بسوء.

فسواء علينا أنظرنا في المسألة من جهة الفن وحريته ، أم من جهة الاصلاح وضرورته ، وسواء علينا أأخذنا برأي ابي الفرج قدامة بن جعفر إذ يقول في رسالته «نقد الشعر» :

«ان المعاني كلها معرضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر ... وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة ، والبذخ والقناعة ، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة ، ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الى الغاية المطلوبة ...»

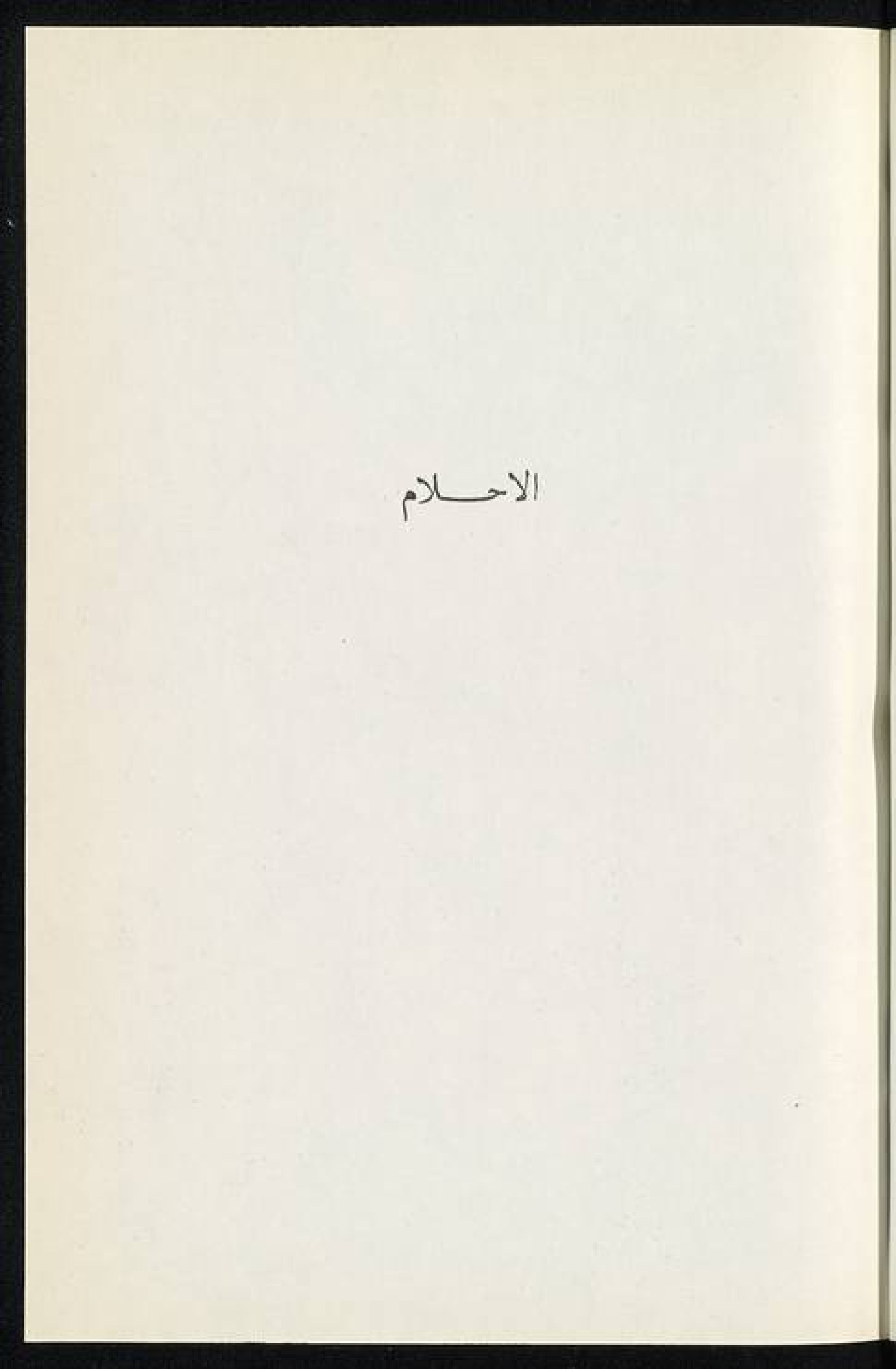
أم ذكرنا ضحكة فولتير الهازئة الموجعة ، الصالحة المصلحة ، التي كادوا يؤرخون بها العصر الجديد او يرمزون عنه بها ، فلا بد لنا في كلتا الحالين من ان نحمد الى حنين هذه النزعة المباركة في أغانيه العامية . هو أولاً الشاعر المجيد فناً ، وهو أخيراً المصلح المحسن اخلاقياً واجتماعياً .

ان وراء هذه الأغنية «الخفيفة» التي لا تكاد تملأ صفحة من كتاب ، قصة بتمامها - فاجعة بفصولها ، ولا بأس أن نسميها : «القرنان» (وهو لغة الرجل المشارَك في قرينته) . تلك ناحية من نواحي الحياة لا يجرأ الادب في بلادنا على دخولها ، كأني به يخاف ان يُتهم «بسوء الأدب» . تُرى ! أهذه الاجمة التي تأوي

الى أدغالهـا الرذائل والمفـاسد والمساويء والخيانات بأنواعها «حرَمٌ» من دخله فهو آمن ؟

تريدون أدباً صحيحاً ؟ إذن فلندع الحياء الكاذب .
وتريدون اصلاحاً اخلاقياً ؟ إذاً فلندع الرياء الاجتماعي .

١٩٢٨



الاحــــلام

١

للأحلام في الحياة شأن كبير، أو هي على الأقل نصف الحياة. والاحلام عالمٌ على حدته، تصح المقايسة بينه وبين عالم اليقظة أو الواقع، من حيث الاتساع وترامي الاطراف ومن حيث الغنى بالحوادث والصور، بل ان عالم الرؤيا لأعظم سعةً من عالم اليقظة وأكثر ثراء. ومن قديم الزمان أخذ العلماء وغير العلماء، وما زالوا، يضربون في مجاهل هذا العالم، كما يستكشف الرحالون دنياً جديدة.

وإذا صحّت المقايسة بين عالمي اليقظة والحلم من وجوه عدة، فليست تصح المعارضة بينهما تماماً كما يعارض الشيء بنقيضه، ولا يمكن الفصل بينهما الا بمثل ما يفصل الأقيانوس الدنيا القديمة عن الدنيا الجديدة اللتين تصل بينهما السفن الماخرة في عبابه، والانباء الطائرة في جوّه. وفي هذا المعنى، معنى المقاربة أو

المماثلة بين اليقظة والحلم ، يقول الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» :

«أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ولا تشك في تلك الحالة فيها ؟ ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ... كذلك يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، فتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها . فإذا اوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالاتٌ لا حاصل لها .»

وقد تبع العالم الفيلسوف «ديكارت» الفرنسي ، حجة الاسلام للغزالي في رأيه هذا ،فقال ما ترجمته :

«اذا اعتبرنا ان كل هذه الافكار التي تقوم في أذهاننا اذ نحن في اليقظة ، قد تخطر لنا ايضاً ونحن في سنة النوم ، دون ان تكون هذه او تلك على السواء صحيحة ، فينبغي إذن ان اضمر كون جميع الأشياء التي في ذهني ليست أصح من تخيلات احلامي .» وبعد ان يذكر ديكارت انه كان اذا نام ، يتخيل في احلامه نفس الاشياء التي فكر فيها وهو يقظان ، يستنتج هذا الاستنتاج الاخير : «اتضح لي ان لا امارات يقينية يستطاع بها التمييز بين اليقظة والنوم ، أو بين الحقيقة والحلم ، بوضوح وجلاء.»[1]

١) راجع كتاب (آراء غربية في مسائل شرقية) ترجمة المؤلف .

وليس الحلم ، كما يتبادر للذهن وهلةً اولى ، قاصراً على المنام وهو الحـال المعروفة بشروطها الخاصة ، بل إن من الأحـلام ما يُدعى بأحلام اليقظة ، كما ان من الناس مَن يُدعون بالحالمين ايقاظـاً وهم الذين يفكرون ويتخيلون في يقظتهم كما يفكر ويتخيل الحالم المقصود بالذات ويكادون «يرون فيما يرى النائم..» وما من امريء الا مرت وتمر عليه احيانٌ يتملكه فيها شيء من الذهول ، فيغيب عن العالم المادي الظاهر ، فبينما هو مع اخوانه يتحدثون اذا به قد «تركهم» بغتة بقوى نفسه جميعاً ، و «راح» مع احلامه ، فيشعر جليسه بأنه انتقل الى عـالم آخر ، عـالم الرؤى والاحلام ، فيلتفت نحوه ويقول هازاً ذراعه كمن يوقظ نائماً ، باسماً له كالمعاتب على انه فارق اخوانه دون استئذان او وداع :

اين انت يا ؟ . اين صرت :

فهو حينئذ لا يجيب قط بأنه هنا ، حيث تراه ، بل يبتسم كالمعتذر عن ذنب فرط منه ، وإن يكن في اقصى ضميره آسفاً ، ناقماً على هذا الثقيل الذي قطع عليه «حلمه الجميل» .

وهؤلاء الحالمون الايقاظ على درجات متفاوتة ، أولها درجة «رجال العمل» الذين يستغرق الجهاد حياتهم او يملؤها ، ما خلا سويعات قصيرة نادرة تضيع في الحـالة النفسية التي أتينا عـلى وصفها ، فيكون من ذلك ملهاة لهم وترويح لنفوسهم . وآخرها

درجة « رجال الحلم » الذين تستغرق تلك الحالة حياتهم اليقظى كلها او تملأ جميع شعابها ، حتى يصبحوا عاجزين عن القيام بأي عمل مطرد ، لأنهم ، إلا فيما ندر ، غائبون عن العالم المادي المحسوس ، غرقى في بحر الرؤى والأحلام والخيالات والأوهام. وقد لا يجدون طمأنينة نفوسهم وسعادتها الا في ذلك العالم ، فإذا اضطروا للعود الى عالم المادة او الواقع بقوةٍ من قواه القاهرة ، عادوا اليه مكرهين متبرمين يساورهم خوف وحيرة كأنهم فيه غرباء مساكين . ثم لا تلبث تلك القوة القاهرة ان تزول حتى يعوذوا بعالمهم الذي ألفوه وعرفوا « جغرافيته » ووجدوا السعادة والطمأنينة في رياضه الغناء المسحورة .

يقول الشاعر العربي لحبيبته :

ان كان واديكِ ممنوعاً فموعدنا وادي الكرى ، فلعلي فيه ألقاك

وكأيٍّ من رجل آذته الاقدار بالمنع والحرمان من رغائبه العزيزة ، وعجز عن تحقيق مثله الأعلى لبعد الشقة بينه وبين الواقع الذي كتب له ، لكنه لم يستطع ان يوطن نفسه على الرضى بهذه الخيبة المريرة ، فانكمش وبنى من أحلامه المذهبة قصراً يلوذ بفيئه من هجير الحياة اليومية ، فهو يقول لمثله الأعلى او للسعادة ، محبوبةِ كل انسان ، ما قاله ذلك الشاعر المتيم لحبيبته ، ضارباً لها موعداً في وادي الكرى والاحلام .

ومن «أهل الحلم» بل من أولهم وأولاهم بالذكر ، الشعراء الذين يهيمون في كل واد ، لا سيا في ذلك الوادي حيث تمرح الطيوف وتسرح الأخيلة . ومن هؤلاء الشعراء السيد شفيق المعلوف الذي نشر منذ أيام قصيدة عنوانها «الاحلام» .

٢

في مجلس ضم بعض اخوان الادب ، تناول الحديث قصيدة السيد شفيق المعلوف او مجموعته الشعرية الصغيرة التي سماها «الاحلام». فما اخذه عليه احدهم ، بل اكثر من واحد منهم ، هو ان فيها غموضاً وابهاماً وتشويشاً . واني لأذكر كلمة قيلت يومئذ في هذا المعنى :

«لا مراء في ان لدى هذا الشاعر الفتى شيئاً يريد ان يقوله ، لكنه لم يوفق هذه المرة توفيقاً حسناً ، او كل التوفيق.»

قلت : لا ارى هذا الرأي . انكم تنظرون في ذلك الشعر بعين العقل وتحللونه تحليلاً منطيقياً ، وتنسون انها « احلام » واحلام شاعر ، وليست ميزة الاحلام في انها عقلية منطيقية ، كما لا يخفى . فأنا وإن لم اقرأ القصيدة بعد ، اردّ حكمكم هذا عليها ، اردّه اصلاً (او مبدئياً كما يقال) ليقيني ان الاحلام أنما تمتاز عن الحقائق بكونها عاريةً من حلل المنطق ، منحرفةً عن جَدَد المعقول ، والاّ لم تكن احلاماً . اذا كنا نقيس عالم الرؤيا بمقاييس عالم الحقيقة فلن يصحّ لنا حساب قط ، وإذا كنا نحدث عن الاحلام بلغة اليقظة فمن المتحتم ان لا نتفاهم ابداً.

ولعمري لو ان هذا الشاعر قص عليكم في «احلامه» كيف انه في ساعة من ساعات الشيطان (او سوء الهضم) قتل احد خلق الله الابرياء ، فهل كنتم ترون ايضاً أن من حق القضاء او من واجبه ان يدين الشاعر باقراره ، ويعاقب «القاتل» على ما جنته يداه ؟

يقول علماء النفس ان الرؤيا فوضى ذهنية تلهو فيها ملكات النفس وتلعب ، في نجوة من رقابة الملكة الناظمة ويعنون العقل . فالحوادث والصور تكون في الحلم مشلتة متبلبلة ، غير متسقة ولا متسلسلة ، بينما تكون في اليقظة منتظمة موجهة نحو غاية من الغايات ، متصلاً بعضها ببعض على الصورة المعتادة المعقولة .

قد ترى ، فيما يرى النائم ، انك سقطت من اعلى المأذنة على أم رأسك ، ولكن هذا لا يعوق الحلم على ان يستمر ، فإذا انت – ولم تمت ولم تنزعج – مشغول بأمر آخر . كذلك لا بأس عليك وعلى المنطق إذا رأيت فيما يري النائم ، النار تضطرم وسط الماء ، او غير ذلك من الخوارق التي تُعد في عالم الرؤيا اموراً بسيطة مألوفة غير خارقة . فهل من العدل والعقل في شيء ان نقيس الحلم بمقياس الحقيقة ، وان نطالب شاعر «الاحلام» بوضوح اكثر وانتظام اتم – هذا على فرض ان قصيدته تشتمل ، حقيقة ، على «احلام» سواء مما يراه النائم أم مما يراه الحالم اليقظان ؟

ولا يحسب القاريء اني اردت تفكهته بانتحــال الاعذار لشاعر قد يكون في غنى عن الاعتذار، او اني عقدت النية على الكتابة في موضوع الاحلام، فانتهزت فرصة سانحة يضنّ الدهر بمثلها ، إذ استعرت عنوان تلك القصيدة لمقالاتي . كلا ، فأنا لم اغرق في بحر الاحلام بعيداً عن ساحل الأدب والشعر ، بـل لم اخرج عن دائرة رسمتها لنفسي قيـد شعرة . وليس الذنب عليّ إذا كانت السبل تطول وتقصر، وتستقيم وتلتوي، فتؤدي جميعاً في النهاية الى تلك الدائرة – كما تؤدي الدروب في القرية ، كل الدروب الى الطاحون .

في فرنسة مذهب ادبي جـديد يسمونـه مذهب « ما فوق الحقيقة والواقع» surréalisme ويقول دعـاة هذا المذهب ان النفس الإنسانية خلال العصور التي توالت عليها ، قد اكتسبت كثيراً من العادات ، وتقيدت بكثير من التقاليد ، وخضعت لكثير من المواضعات ، حتى أصبحت وراثية فيهـا او تنزلت منها بمنزلة الوراثة . ويزعمون ان هذه حجب لا تمكن من رؤية الحقيقة الاصلية العليا التي ينبغي ان تتغذى بها الآداب والفنون، والتي لا تبدو من طيّ الخفاء الا اذا تملصت النفس من عـادات تفكيرها وأقيسة منطقها، وانطلقت من قيود التقاليد الاخلاقية والمواضعات الاجتماعية ، الملازمة لها في اخراجها الآثار الفنية والأدبية . ان العقل ملكة ناظمة تصل بـين الأشياء بصلات مصطنعة توهم الحقيقة ايهامـاً . وان العقل ملكة نقادة تتخير

بين الاشياء فتقصي شطراً من الموجود او تغفله ولعلّه هو الشطر الافضل . وان العقل رقيب على سائر ملكات النفس مسيطر عليها فهو يأمر الخيال مثلاً ويكبح جماحه ، والاحسن ان يُترك الخيال المبدع يسرح ويمرح ، وحبله على غاربه .

والخيال المبدع ، كما يقول داعية هذا المذهب ، هو الذي يوفق الى الفرار ممّا تواطأ الناس على تسميته بالواقع الذي لا واقع سواه ، والحقيقة التي لا حقيقة غيرها ، الى واقع أخصب ارضاً وحقيقة اكثر ثراء - الى حيث لا يساوي اثنان واثنان اربعة !

لذلك كان دعاة «الحقيقة العليا» يجدّون في انتهاز الحالات التي تكون فيها رقابة العقل على سائر الملكات النفسية ضعيفة او لا اثر لها ، كما يجدّ الصوفي في طلب حالات الوجد والكشف .

ولا مشاحة في ان الاحلام،سواء احلام اليقظة ام احلام النوم، هي الحالة المثلى لهذا الفريق من الادباء والشعراء، منها يستمدون فنهم وأدبهم ، وشعرهم ونثرهم .

- إذن فالسيد شفيق المعلوف صاحب «الاحلام» هو من هؤلاء ؟ أتحسب انه فكر في هذه الامور او خطرت له ببال ؟

- قد يكون ذلك وقد لا يكون . قلت لكم منذ تناول حديثنا قصيدته اني لم اقرأها بعد .. سوف نرى .

٣

كنت اقرأ قصيدة «الاحلام» فوقفت عند هذا البيت الذي يقوله الشاعر معتذراً ، لا عن ذنب او خطيئة ، بل عن انه «يشرب» من عبراته ، ولعل اعتذاره عن ملوحتها :

وما الماء الا دموع تجمّع منذ الخليقة من مقلته ...

فقلت : إذن لا حرج على المرء ان يذهب الى النبع رأساً ، فيكسر عطشه بزلال «العين» الاصلية !

وهذه مبالغة تذكرني قول احد الفلاسفة الاقدمين : « قد تقرصنا إذ نحن نيام ذبابة ، فنحلم بأننا قد ُطعنا بسيف هندواني. » ذلك ان النائم يكون عرضة لعوامل خارجية تؤثر في حواسه ، فتعظم الرؤيا هذه الصغائر وتبالغ في تجسيمها . والمبالغة الى حد الخروج عن دائرة المعقول إحدى صفات الاحلام .

ما أنا بعاتب من السيد شفيق المعلوف تشاؤمه الذي خيل اليه «ان الماء دموع الإنسان تجمعت منذ الخليقة» والا كنت مطالباً اياه بتبديل طبيعته ، حالماً أنا ايضاً بأن هذا المستحيل من الممكنات . بل اني لاؤثر كل متشائم سوداوي الرأي في

الحياة على كل متفائل يرجي الخير منها ، وكثيراً ما احشر المتفائلين في زمرة الحمقى فاعتثلهم ، بالرغم مني ، يضحكون جماعة – ضحك البلهاء . ثم كيف اجرؤ على لوم هذا الشاعر الفق وهو يدّعي لامام المتشائمين ، المعري القائل :

الى الله اشكو انني كل ليلة
اذا نمت لم اعدم طوارق اوهامي :
فان كان شراً فهو لا بدّ واقع
وان كان خيراً فهو اضغاث احلام!

لست ألومه ولكني ارثي له من نوع رثائي لنفسي. فان احلامه مأهولة بأفاعي تنفث سمها في قلبه ، ولا تنقلب هذه الافاعي ، ولو لحظة واحدة ، بفعل الرؤيا الساحرة القادرة على كل شيء ، ذراعي حبيبة ترشف ثغره رحيق النعيم . ولكن يلوح لي ان صاحبنا ينعم بيأسه ، نعيم غواة المخدرات بما يعلمون انه قاتلهم ، فيقول :

وما روّعتني رقطاء قمت اداعبها مدمناً لثمها !

اما هذه «العشيقة الرقطاء» فهي . . . أحزرت ايها القاريء ما هي؟ اني دالّك على الطريق: اذكر «قرص الذبابة وطعنة السيف الهندواني». أحزرت الآن؟ – نعم ، هو نربيج النرجيلة :

فنربيجها بين هذي الانامل رقطاء تنفث بي سمها . .

ولعمري هل في الوجود شيء تقدر الاحلام ان تقلبه بسحرها

المبين حية تسعى ، كما كان يفعل موسى عليه السلام في عهد النبوآت – غير التربيج؟ فان لم يكن ما تضمنته قصيدة السيد شفيق المعلوف احلاماً فماذا تريد ان يسميها ، او كيف انكر عليه هذه التسمية وقد شهدت في شعره تلك الاستحالة المعجزة ، استحالة التربيج الى حية؟ لا مراء في انها ، ان لم تكن احلاماً ، شبيهة بها كأنها هي ، والا فكل قياس باطل .

ستقول انه خيال الشاعر . فاجيبك : اجل ، وهو «الخيال المبدع» الذي عرضت له في الفصل السابق . وازيد اليوم انه لا يكون مبدعاً الابداع كله الا في حـــالات انطلاق النفس – ملكاتها – من امر العقل الكسبي الذي لا يحيد قيد شعرة عن القاعدة القائلة : «اثنان واثنان تساوي اربعة» وامثالها من القواعد ، ولو ترك له الامر جميعاً لما رضي قط بأن يخلط – مثلاً – بين نربيج النرجيلة والحية الرقطاء. بيد ان الخيال ، لحسن الطالع ، يوفق في غفلة العقـل عنه ، الى ابتداع اقيسة ومقاربات غـير منطقية ، فكأنه يخلع ، حيناً بعد حين ، على هذا الوجود حلة جديدة . والحالة المثلى لابداع الخيال ، كما تقدم ، هو الحلم الذي كأنه العالم الآخر ، بجنته وناره . . .

في «احلام» السيد المعلوف ، ما عدا تلك الافعى ، زنبقة في جمجمة وكرة نار ونفخة صور وهلمجرا . وفيها ايضا قبور . . . ان العامة لم يدعوا شيئاً الا قالوه . والمثل : «من نام بين القبور لم يأمن الاحلام المرعبة» مشهور . واحسب ان الشاعر اذ وصف

تلك الرؤى بقوله «احلام مقلقة» يتواضع قليلا او يبالغ في التجلد، والا فهي، على الحقيقة، اكثر من «مقلقة».

*

الآن والضرورات تقضي عليّ بختم هذا البحث في الاحلام — ولم اتناول الموضوع الا من بعض نواحيه، بايجاز — فلا بد لي من اظهار ما خالط نفسي، وأنا اقرأ القصيدة، من لذة ومن اعجاب بمواهب ناظمها المطبوع وصوره الرائعة. لقد فتح هذه الشاعر الفتى في الشعر العربي باباً، فولجه بذهنية غريبة على روحه التاريخي التقليدي، غريبة السمة والطابع. ولعل عنايته بمتانة السبك وجودة التعبير اللتين تخيلان ان تلك الذهنية ليست غريبة بهذا المقدار، ان كانتا لا توهمان «القرابة» ايضاً، اقول: لعل عنايته هذه خير شفيع له.

تعرفت الى السيد شفيق المعلوف منذ ايام وجلست واياه جلسة قصيرة اهداني فيها بمجموعته الشعرية الصغيرة. فهذا، وهو قليل جداً، يحملني على ان آذن لنفسي باسدائه نصيحة يغلب على ظني انه في غنى عنها:

اما وانت يا شاعر «الاحلام» سوداوي المزاج، يائس من الحياة الدنيا هذا اليأس الاسود، فقل:

«اعوذ بفني، ان في الفن عزاء وسلوى!»

١٩٢٦

المرأة المجلوّة والمرآة الصدئة

١

في ذات يوم من ايام الصبى علمت ان الشاعر قد يغير على الشعراء المتقدمين فيأخذ ابكار معانيهم ومبانيهم « سبايا » بلا قتال . ولعل اول شعرة بيضاء نبتت في رأسي هي التي ارّخت هذه المعرفة الرائعة ، فاني رأيت يومئذ في الحلم ، لص الدواوين يتسلل خفية في الليل بين الاضرحة الموحشة ، ثم يعود بغنيمته سرقة من امتعة الموتى، ويا للهول ! لا اذكر من قال لي بعد ذلك: ان أمر هذا الشاعر - الشاعر اصطلاحاً - هين جداً يكفي ان تقول انه ليس بشاعر ، حقيقةً ! وما هذا بنقد ، بل هو حكم بالاعدام .

وما لبثت أن خبرت ذات يوم آخر ، خبر الاديب الذي لا يسرق قاصداً متعمداً ، ولكن لا ذاتية له واضحة ، فليس يبرز من ذاتيته شيء في شعره او نثره ، وليس شعره او نثره اذن الا كالامواج التي لا تفور حتى تغور زبداً وتذهب جفاء .

وأجل شأناً من هذه الحوادث المفردة حادث الجيل الأدبي الذي يقتل التقليد والصنعة والبيانيات روح الصدق والبراعة والطبع ، فيه . فانه تأتي على آداب الاقوام ازمنة لا تخرج الا الزائف ، ويصح فيها القانون الاقتصادي القائل ان النقد الرديء يطرد النقد الجيد من السوق ، بل يلاشيه .

قرأت في كتيب قديم عن الادب الروسي ما خلاصته : تأثرت اوربة في عصر الانبعاث ، أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بادبين عظيمين هما أدبا الاغريق واللاتين . فبعثت النماذج والانماط الجليلة التي خلفها هذان الادبان ، شعوراً في النفوس بسلطان الشعر الحي والصناعة الدقيقة ، شعوراً قوياً هاج في الامم الغربية رغبة التوليد والابتكار . وكانت لهذه الاقوام شروط في المعيشة وآراء وعقائد خاصة ، ومثل عليا في الحياة تختلف عما كان للاغريق واللاتين في عصورهم . لذلك لم يكن نتاج الأمم التي ورثت كنوز اليونان والرومان تقليداً محضاً ، بل اصبحت لها آداب حية طريفة ذات معان ومناح خاصة .

وتأثرت روسية في القرن التاسع عشر بآداب اوربة الغربية ، وخاصة بأدبي الفرنسيس والانكليز . لكن شروط الحياة الروسية تختلف بالكلية عما في فرنسة وانكلترة من ذلك ، فلم تر مسحة التقليد على ثمار قرائح المؤلفين الدروس ، بل انهم كانوا يلاحظون

ويختبرون ، ملاحظة خاصة واختباراً صادقاً مطبوعاً جعلا نتاجهم الأدبي مستقلا متميزاً قائما بذاته ، حتى قيل انه أثر كردّ الفعل ، في ذات تلك الآداب التي بعثت فيه الحياة من قبل .

فرنسة وانكلترة قطران عريقان في المدنية التالدة . وبقدر عراقتهما ابتعدا عن الفطرة الخالصة . ومن ثمار المدنية فيهما تعدد الطبقات الاجتماعية وكثرة المصطلحات او المواضعات ، ولهذين العاملين اكبر الأثر في موقف الاديب وفي مناحي ادبه ، فهو منفعل الذهن بهما ، خاضع لسلطانهما ،لا يمكن ان يصدق الصدق كله وان يصدر شعره ونثره عن طبعه ، خاصة . هذا هو شأن الكاتب في فرنسة رغم اعتقاده ان الصدق والطبع من العناصر الجوهرية في الأدب الحي الخالد ، ورغم الحرية الواسعة التي ينعم بها الناس في دائرتي الاخلاق والعادات . فانه لا يصدق خيفة السخرية ، واكبر همه ان تستر الصنعة والكلفة ادبه . كذلك هو الكاتب الانكليزي الذي يراعي ، ما وجد الى ذلك سبيلا ، جانب الاحكام المقررة في الاخلاق والعادات فلا يتعرض لها بسوء . اما الكاتب في روسية فهو يتحرى الصدق جهده ، وما يكتبه يتحدر عن طبعه ، وطبعه سليم لا يشوبه كدر المواضعات الاجتماعية او رياء الاخلاق السائدة والعادات المستحكمة .وهذه الخاصة – خاصة الصدق – في الأدب الروسي ناشئة عن كون طبقات الناس اقل في البيئة الروسية منها في اوربة الغربية ،

وعن ضعف اثر المواضعات فيها ، ثم عن حس اخلاقي صارم دقيق لا يحجم عن اظهار المساويء وعن كشف عورات الاجتماع . وليس ادل على هذا مما يذهب اليه تولستوي من ان السكوت عن رذيلة كتمان لها ونصح واغراء بها .

٢

ليس بهين ولا يسير وصف الأثر الذي تؤثره المواضعات الاجتماعية والاخلاقية في ادبنا الحديث . واترك الأدب القديم جانباً ، فليس في نيتي ان اعرض هنا للادب العربي في مجموعه ، لئلا تضيع هذه الخواطر الضئيلة في رحاب ذلك الافق العظيم . ولكن قبل الكلام عن المتعارفات الاجتماعية والمواضعات الاخلاقية التي تقوم حياتنا عليها والتي تفعل ، عن هذه السبل ، فعلها في حياة أدبنا ، أحب ان امهد لذلك بكلمة وجيزة في ما اسميه المواضعات البيانية او « العرف والعادة » في الشعر نفسه .

من آثار هذا العرف الأدبي التغزل في مطلع القصيدة ثم التخلص الحسن او السيء ، الى المديح او الرثاء ، والغلو في توهم صلات « هوائية » بين حادثات طبيعية لا يد لأحد فيها وبين شؤون لا يضيق بها صدر الطبيعة ، لكنها قد تهم شاعراً او شويعراً ، وقد لا تهمه ، في الاحزان والمسرات ، وحيناً تصور

كهذيان المحموم انه كان يجب ان تقع حادثات كونية جسيمة لا تقع عادة او يمتنع وقوعها فعلا ، مشاركة في حادث بسيط او مركب هو موضوع تلك القصيدة ،والشكوى من الزمان الخصيم ومن صروفه «المتعمدة» في مواضع معينة من قصائد معينة ،الخ.

صورة الكمال في تاريخ الأدب كما يفهمه اكثر رجاله صورة غابرة في الأدب القديم . لذلك كانت خلائق ادباء العصر ، في الغالب على تلك الصورة . وما ادري أمن حسن حظ الأدب ام من سوء طالعه ان يكون – او ان يُرى – افضله نتاج طفولته ، بمعنى انه اذا صح هذا الرأي كان الأدب العربي في مجموعه كالهرم قاعدته ضخمة ،دق ودق حتى صار رأسه كالمسلة ، يضؤل ويضؤل حتى يضمحل ! وفي تاريخ أدبنا ، هذا العصري ربيبُ ذلك القديم ، ويكاد يكون هو ، لولا الفواعل الطبيعية التي لا حيلة للناس في دفعها . ألست ترى الشعراء يتزاحمون بالمناكب في الطريق الموطأة الرود التي يمشي فيها العميان بلاأدلة ولا عكاكيز؟ ما اكثر المقولات المكررة والاكاذيب المقررة في أدب لا يفتأ يرجع ترجيع الطير الوحيدة النغم ، او يجتر اجترار الابل ذوات المعدتين !

اذا كنا في حجرة حبيسة الهواء لا ينفذ اليها النور ، او اذا كنا لا نعطي الا المتماثل من مصنوعات مصنع أدبي واحد ،فليس السبب انسلطان الانماط والنماذج الاولى كبير ،ولا ان الشخصيات

الأدبية القادرة الواضحة تكاد لا توجد في ظهرانينا – ليس هذا ناتجاً عن هذين السببين فحسب، فان ثمة عاملا جليل الأثر وليست تعدله العوامل الأخرى ، هو الاعتقاد بان في حياتنا ما لا يصح نقله بالصورة الفنية، او اذا قُدر ونقل فلا يصح نقله على حقيقته. ولعل في ادبائنا من تحدثه نفسه بتصوير وقائع الحياة دون توشية او زخرف او « تمويه » ولكن لا جرأة له على ذلك، وهنا يبدو سلطان المواضعات الاجتماعية والاخلاقية على الأدب العصري ، فان أدبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرآة الصدئة العروس او المرأة المجلوة.

وعلى ذكر المرأة المجلوة وما تنقله من محاسنها صفحة المرآة الصدئة ، نضرب في هذا السياق مثلا : المرأة في أدبنا العصري وكيف ان الحلال والحرام ، وما يقال وما لا يقال ، هي وحدها هموم الأديب ، في الغرفة الحبيسة الهواء التي لا ينفذ اليها النور ، او في الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير ادلة او عكاكيز.

٣

قلت يوماً في سياق الكلام : « المرأة « محجوبة » عن أدبنا بقدر ما هي محجوبة عن حياتنا . وانا الآن اقر بخطأي واقول : كلا ، ليس من العدل ان يقاس حجاب المرأة في الحياة بحجابها في الأدب . هو هنا اكثف منه هنالك ببضعة عشر سنتمتراً ، ان احسنت التقدير . فاذا كنت تحسب المرأة في دنيانا الشرقية الفانية « مرتين » ، ظلا خفيفاً لا تحسه يقظاتنا ، او خيالا فراراً لا تعيه احلامنا ، فهي في هذا الأدب « المذكر » ظل الظل وخيال الخيال .

لا نزعم ان المرأة في مجتمعنا قد أحلت في المحل الارفع الذي يقول النساء كلهن والرجال بعضهن انها جديرة به ، فهي لا تزال بعيدة عنه جداً . واذا كنت لا تكاد تفقد المرأة في ديار الغرب طرفة عين ، او اذا كانت آثارها لا تغيب عنك ، حتى كأن المدنية بكل ما فيها من جليل فخم ومن دقيق لطيف لم توجد

الا لها، والا موسومة بطابعها ، فانك تكاد لا تلقاها او تعثر على آثارها هنا في « مدنيتنا » وفي كل .. ما فيها ايضاً من لطيف دقيق ومن فخم جليل . لكنك على كل ، واجد في حياتنا من ذلك شيئاً ، واجد بالاقل « الشيء الحيواني » . بل انا على يقين من انك قد تعثر بهامات من اشياء منزهة عن تلك الحيوانية التي لا نذهب الى وجوب استئصالها من الطبيعة الانسانية ، وانما نجرؤ على القول ان هذه الحياة الدنيا « غيرها » ايضاً .

فهذه الصلة الاولية بين الرجل والمرأة ، لا مراء ، موجودة في حياتنا ، ولسنا نجد لهـــا في أدبنا اثراً . واذن فهذه المرآة الصدئة لا تنقل من محاسن المرأة المجلوة ولا المحجوبة قليـلا او كثيراً . بل يخيل الي ان أدبنا هو من تلك المرائي الخبيثة الخداعة الــتي تمسخ الوجوه وتشوهها فتقصر وتطول مــا شاءت من رقة وضخامة ، حتى لتتنكر الوجوه المسكينة صورها الكاذبة ، حانقة متسائلة في حيرتها ، قائلة : من الشيطان الذي لعب علينا هذه اللعبة ؟

وبعد ، فاية صورة من المرأة تتجلى على مرآة أدبنا ؟ يخطر ببالي الآن ان اسأل احـد الرسامة المجـان الظرفاء تمثيـل تلك الصورة التقليدية التي حفظها الشعر العربي ونقلها الينا « دون تصرف » كأنهــا اثمن الكنوز واغلاها : « من الوجه كالقمر» الى « القامة كغصن البــان » ، المركز في كثيب الرمــل » . . . ثم

اطرح على الصدر المرمر ما شئت من « رمان النهود » او اثبت ما طاب لك من «حقاق العنبر» الخ . . ما انا بمنكر من الغزلين هذه التشابيه الجاهزة ، فما كان احسنها وابلغها – على ما نتصور – لأول عهد اللغة بها ! ولقد قال اول من قالها ، شيئاً جديداً اثر في نفوس السامعين ابلغ الأثر . كانت قوالبُ ، وكان كل شاعر يأخذها على سبيل العارية ، فيصب فيها استعارات وتشابيه اخذها بالدين ايضاً : هذه هي القصة من فاتحتها الى خاتمتها .

صورة المرأة في أدبنا – مي ودعد وهند او (سعاد التي بانت . .) كل هؤلاء او احداهن او لا احد . صورة غامضة مبهمة ضائعة . لا ذاتية ولا ميزة ولا شيء تعرفها به ، او هو ذلك « الشيء » الذي لا شكل له يوصف : تراه ليلا في ازقتنا الملتوية الضيقة كصدر المغموم في ملاءة سوداء ، فتحس لأول وهلة انه يهم ان يتضاءل ويتصاغر ويتخبأ ، متسللا في ظلال الجدران القاتمة الموحشة ، ويقولون انه « امرأة ! »

اما الجمال وما يوحيه الى النفس من معاني السمو ، الجمال بلطفه وانوثته ونعومته . . . واما الحب وما يبعثه من متعة ونعيم لا يحدان ، الحب بذله وكبره ، وقوته وضعفه ، وطمأنينته وقلقه ، وبرده ولذعه بل بكل متناسباته ومتناقضاته ، فلست واجداً بعض ذلك . ولعمري اذا ما قضي على عنصر الجمال في الأدب ونضب معين الحب ، اذا فقدت ذائقة الجمال وخبرة الحب ،

فهل يظل الأدب حيـاً طليـاً ممتعاً ؟ لن يكون ذلك « الصدر المرمر » اذن الا قبرية كتب عليها : (هو الحي الباقي !)

المرأة – الام والاخت والزوج والعشيقة ، والقوادة سفيرة الحب التي يدعوها الترك دلالة الهوى . هل رأيتها وهل عرفتها؟ ان أدبنا لم يرها ولم يعرفها . كتب الجاحظ عن لصوص الليـل ولصوص النهار ووصف جماعة الشحاذين في عصره ، الذين نبغوا في الشحاذة .طبقة من الناس على حدة ، لها مراسم ومصطلحات ولهجات وعادات واخلاق خاصة . ارجع الى كتاب البخلاء يبد لك الهدف الذي نرمي اليه . لقد وصف الجاحظ الشحاذين في عصره بدقة وبراعة ، وانطقهم واحياهم . فماذا علينا ان يكون هو الامام الذي به نأتم ، ان كان لا بد من امام ؟

ماذا علي اذا حدثتني نفسي يوماً – النفس الامارة ،بان اصف دلالات الهوى . . . ماذا علي اذا طمعت او اطمعت اخواني بان نصف المرأة كما هي في الحياة على انواعها ، وفي جميع احوالها ، وفي المباح والمنكر على السواء من صلاتها بالرجل ؟

تغضب « الاخلاق » ويتميز « الحلال والحرام » من الغيظ ، ويخاف فلان مثلا سطو حماة المجتمع وآدابه عليه ، اذا هو نوي صقل المرآة الصدئة لتنقل محاسن المرأة المجلوة كلها ، فيحجم عن وضع قصة « دلالة الهوى » واذاعتها بين الناس .

٤

رحم الله امرأ القيس قائد الشعراء الى النار ، كما في الحديث . سأهتدي في هذه النقلة من فصل المواضعات الى فصل الاخلاق بهـدى الملك الضليـل ، الشاعر المغامر المقامر ، الشارب الخمر واللاعب بالنرد ، صاحب دارة جلجل – بنفسي دارة جلجل ! والملهي المرضع عن محولها ذي التمائم : حياة وثنية جاهلية « لا اخلاقية » . لو كانت رواية موضوعة لعدت في الطرف القصصية او في الصور الفنية الجميـلة . واني لأتساءل ايهما احسن : شعره الذي نظمه أم حياته التي بددها ؟ ولست على يقين من ان شعره يفضل حياته . كيف ؟ وهو جزء منها ، ليس الا ؛ من يستطيع ان يفصل بينهما أم من يستطيع ان يجد في حياته عناصر لم توجد في شعره ، وعكس ذلك ايضاً ؟ لعل الاصح ان تقول : كانت حياته شعراً في « حالة العمل » وكان شعره حياة « منظومة » . هنا اقف القلم هنيهة لاعتذر عما سبق به من رد العجز على الصدر ، فبرغمي ان الحياة والشعر والشعر والحياة ، لعبا عـلى حبـل

امريء القيس .

محا الغلو في اظهار فضائل الإسلام كثيراً من فضائل الجاهلية ، وطمست المبالغة في الاشادة بمحاسن الدين الجديد على كثير من محاسن الوثنية ، إذ صور ذلك العصر البائد باشد الالوان سواداً ليطلع منها العهد المحدث بأشرق وجه واصبحه . ويغلب على الظن انهم لم يفكروا في الرجوع الى ذلك التراث المهجور الا بعد ان انفرجت الأزمة الدينية قليلا ، ومرت السنون على الوهلة النبوية الاولى ، فاضطروا بقيام الشعوبية واستفحالها الى النبش عن تلك الدفائن . ويخيل الي انهم وجدوا عصرئذ ما كان موجوداً .. وما لم يكن له وجود ، فغالوا ايضاً وافرطوا من بعد ، كما فرطوا من قبل .

فضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية ! أتقول : كبرت كلمة ؟ لا ، فلست اعني : دينياً او اخلاقياً ، وليس هنا موضع معارضة ذلك القديم الماثل في الحجارة بهذا الجديد الحي في القلوب ، ولا مقايسة ذلك الأول الأقرب الى الفوضى بهذا الآخر الادنى من النظام . انما عنيت المادة الأدبية او الفنية التي استمدتها المعلقات مثلا . واعيد القول دفعاً للالتباس وزيادة في التأكيد : لا يذهب الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، فاني قصرت واقصر الكلام على القيم الأدبية والفنية الصرف .

اذا ذكرنا الآن ما سبق ذكره من فعل المواضعات البيانية

والاجتماعية والاخلاقية والتقاليد والاحـكام السابقة وخوف السخرية وتعدد طبقات الناس في سلم الاجتماع – أي العوامل المختلفة التي وصفنا آثارها في الآداب وضربنا لها الامثلة – كان اول مـا يتبادر الى الذهن ان العهـد الجاهلي من وجهة نظرنا في هذا البحث هو العهد الأدبي الامثل ، لضعف اثر تلك العوامل جميعاً فيه . وإذ كانت حياة امريء القيس صورة مصغرة لذلك المجتمع العربي ، فـان شعره هو النموذج الأعـلى لأدبه ، الأدب الجاهلي الوثني الطليق: لم تغم عليه المواضعات والتقاليد والبيانيات فتقصيه عن الفطرة السليمة والطبع الصادق ، ولم يوقر بالهموم والمقاصد الاخلاقية التي تحول سياقه من الفن الخالص الى الوعظ المشوب ، والوعظ ان جاز ادخاله في الأدب فأحر به ان يعتبر ابعد الانواع عن حقيقة الأدب وطبيعته .

نجد في كتب الأدب القديمة أن امرأ القيس اول من صنع في شعره كذا وكذا ، وهو اول من شبه كذا بكذا الخ . فان لم نأخذ هذا القول على حقيقته او لم نؤمن بصحته « تاريخياً » فلا اقل من حسبانه رمزاً او اتخاذه مثلا لما يستطيع الشاعر العبقري ان يؤثل من ذاتـه المعنوية في لغـة قومه وأدبهم ، وهو المراد بالطابع الذي يقال انه خاص ولا يخفى اثره . بيد انـه لا يكاد « يقع في الملكية الشائعة » حتى يتهافت عليه فقراء الشعراء ، يستعيرونه كما يستعير فقراء التجار « توقيـع » ذي الاعتمـاد الموثوق يفتحون به لسندهم باب السوق . ثم يشيع استعمال ذلك

الطابع ويكثر تداوله ، منافساً العملة الدارجة ، فيتألف من ذلك ما يسمونه المواضعات البيانية او العرف الأدبي او «كليشه» الكلام . ثم تختتم هـذه الفترة الفاترة بنبوغ شاعر عبقري آخر يكون هواه في ان يحكم بطلاق تلـك الالفاظ بعضها من بعض ، مفسداً موقعاً البين هادماً « البيوت » المتداعية ناقمـاً من طول العشرة الالفة المخدرة ، ثم يتحول هواه الى عقد زواجات بين تلك الالفاظ جديدة عجيبة ، غير محتذ مثالا ، بل موقعاً توقيعه طابعاً بطابعه ، ويقولون في ترجمته : هو اول من فعل في شعره كذا واول من شبه كذا بكذا ، وهكذا ...

ابتدع امرؤ القيس ووضـع ، وتواطـأ الشعراء من بعـده وتواضعوا . ابتدع لانه – ولست اعلم هل عمر طويلا – عاش كثيراً وشقي ونعم . هو « العيّاش » صاحب عفراء والعذارى والحبلى والمرضع . فجع بابيه فلمـا « أتاه الحديث » لم يشأ ان يفجع بدست النرد الذي كان بدأ به وقال كلمته المأثورة : اليوم خمر وغداً أمر ! هوى تاج الملك عن رأسه المزهو المتخايل عجباً ، فهو شريد طريد . لقي حتفه بحلة قيصرية مسمومة لأنه رفع عينه الى ثريا الروم فقتلته الشهوة . لقب « ذا القروح » وقبلُ كانت له كبد مقروحة دلل عليها فأباها عليه الناس لا يشترونها . حياة فيها عناصر التراجيديا جميعاً ، وكانت زهرة الارستقراطية العربية في ذلك العمران الوثني . كذلك في شعره مذهب فلسفي في الحيـاة : النزعة الابيقورية . وتقوم ابيقوريته عـلى اربعة

اركان ، مثل كل بيت : الصيد والخمر والمرأة والحرب . لعله الآن يدور مع الشعراء في احد بروج الجحيم – رحم الله قوماً يقودهم الضليل – وهو ينشد وهم ينشدون :

كأني لم اركب جواداً للذة
ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروي ، ولم اقل
لخيلي : كري كرة بعد اجفال !

فاذن لم يعرف امرؤ القيس ، سواء في حياته أم في شعوه ، المواضعات الاخلاقية التي تورث صفات الجبن والمداجاة والرياء في حياة الناس وفي أدب الادباء ، او فلنقل انه كانت في عصر امريء القيس « اخلاقية » خاصة طوتها الاخلاقية الاسلامية الجديدة .

لنا صديق زعم انه يهم بتمجيد تلك الجاهلية الوثنية ، ويميل الى الاشادة بمحاسنها ، لا لأنها شطر من تاريخ العرب وعنصر في قوميتهم – شطر جليل وعنصر نفيس أقصيا عن التاريخ والقومية – بل لأنه حرج الصدر جداً بتلك « الطفرة » الاسلامية كما يقول ، يؤلم نفسه غلوها في النعي على ذلك الطور اخلاقه وعاداته واوضاعه وعباداته . زعم انه سيعمل على « احلال الشيطان في صدر الإنسان » وسيعين على ارجاع ابليس الذي أخرج – كما يقول – من جنة الاساطير الدينية ، الى جنة الآداب الرفيعة ، يريد انهم افرطوا في تنفير الخلق من طيبات العيش

حلالها وحرامها ، وبالغوا في تزهيدهم في ملذات هـذه الدنيا العاجلة ، وغلوا في الحث عـلى قتل الشهوات الطامحة واخمـاد الاطـماع المضطرمة . يقول : ان ابليس عنصر لازم في الادب وعنصر لازم في الحياة ، فاذا أُخرج منهما طرداً بالسياط او رجماً باللعنات ، كانت الحياة ثوباء ممتـدة بين القطبين تصل الازل بالابد ، وكان الادب أنشودة السآمة .

هذا رأي فتى متطرف مولع بالاغراب في الرأي . ولست أدري ما نصيبه من صحة الحكم ولا ما سيكون حظه من انجاز الوعد . ولكن احب ان اشرح في هذا الصدد ما اعنيه هنـا بكلمة « لا اخلاقية » . لست اعني مـا كان منافيـاً للاخلاق المصطلح على انها فاضلة او ما كان داعياً الى نقيضها، حاثاً عليه . كلا ، فانا اعني ما كان خلواً من الهموم الاخلاقية مجرداً من نية الوعظ وقصد العبرة ، واعني هذا ليس غير . قـد تأتي العبرة الواعظة عفواً وقد تكون أبلغ كذلك ، ولكنهـا اذا لم تأت ، فيا للقرد ! ليس هذا بضار الادب من جهـة انه ادب صرف . كثيراً ما سمعت اخواناً لي يتساءلون منكرين : مـا المغزى من ذلك كله . . وماذا يريد هذا المؤلف . . واين العظة والعبرة الخ ؟ فما يدريهم ، لعل الشرط الذي تقتضيه طبيعة الادب هو ان لا يكون مثقلاً بالهموم الاخلاقية . وعسانا ان مد الله في عمر هذا البحث فبعُد المدى ، نلتقي في منعطف الطريق ، بين الدخول فحومل ، باولئك الحكماء الذين لا يرون في الادب الا لهواً ولعبـاً ولذة

ومتاعاً ولا يحبون الادب الا كذلك . وقد نلتقي في منعطف آخر بمن يقولون ان الادب لا يناقض الدين والاخلاق فحسب ، بل يناقض الحياة ايضاً ، والمشهور انه مرآتها وصورتها وترجمانها .

كلمة اخيرة يضعها القارىء في الحاشية : هذه امرأة قبيحة غاية في القبح ، وهذا رسام فنان . نسخت الريشة الحاذقة الصناع تلك الصورة « القبيحة » – نقول : يا لها صورة فنية « جميلة » ! وهذا القصاص الجهبذ الالمعي وصف رجلا من شذاذ الناس الخوارج على النظم والشرائع ، الذين يحيون ويموتون على هامش المجتمع وتقاليده الدينية الاخلاقية ، وصفه بدقة ومثله لنا ببراعة – نقول : تالله لقد أجاد وأحسن !

في الفنون والادب اذن غير قيم وغير احكام .

٥

– الله ، ما اجمل هذا الحجاب !

كان اول التفاتي الى صديقي الذي همس بهذه « الصرخة » .

قال كلمته بلهجة تضمنت معاني الاعجاب والتلذذ والشوق . وكنا بانتظار الترام في عرنوس[١]، ظهر يوم وضاح يشعثه الغبار، متردد بين الشتاء والصيف لكنه الى لذع الحر أميـل . رأيت الدهشة في عينه وبصرت به وهو يكاد ينجذب الى حيث ينظر، مأخوذاً . أتبعت نظري نظره فتسابقا خلف ذلك الطيف الذي مر معجلاً على بضع خطوات منا ، وكأن بيننـا وبينه لج بحر خضم . كنا في مثل اليقظة الخائبة التي تعقب حلماً هانئاً رغيداً انقطع فجأة . حقاً ، ما كان اجمل ذلك الحجاب !

واخذ صديقي المفتون يصف تلك القامة الهيفاء في ملاءة لا

(١) عرنوس : حي معروف بدمشق

تكاد تحجب من خطوطها شيئاً ، بل تزيدها دقـة ووضوحاً : الجسم مفرغ فيها كأنها منه وكأنه منها – جلدها جلد . وهي في ازارها السماري كحورية استعارت في هبوطهـا الى الارض ، زرقة الجو الصافي ، على احدث زي وارشقه والطفه .

واخذ يصف ذلك البرقع الاسود الذي يكاد يشتعل بنور ما تحته . لا يكتم من الحسن الا بمقدار ولا يشف عنه الا بمقدار . ليس هذا بشراً ، إن هو إلا لغز جميل يفتنك منه مـا ترى ، ويغريك بما لا ترى – بما ترجوه وتتخيله .

من لي بعلم ما اصاب يومئذ صديقي ؟ خيل الي ونحن واقفان عند عمود الترام انه انقلب بفعل السحر المبين شجرة من اشجار الربيع ، مزهرة ، اوت اليهـا صغار الطير ليلا ، ونامت قريرة مطمئنة سكرى بعبير الازهار . لكن رامياً رمى الشجرة بحجر عابثاً ، ففزع الطير وتناوحوا ، فهم ذاهبون صعداً في الجو بينما الازهـار منثورة على الثرى اشتاتاً ، وكأنه سلك من الطيوب والانغام انفرط في يد الطبيعة . لقد اخذت الخواطر والعواطف تتزاحم في صدر صديقي وتتوارد على لسانه متتابعة متدافعة . فمنها ما كانت الاماني تحمله على اجنحتها فيحوم في الفضاء الطلق المشرق ، ومنها ما كان يسقط على الارض بثقل الخيبة والقنوط والعياء كأوراق الخريف الصفراء . هكذا بسم صديقي في برهة وعبس ، وازهر وصوح ، و « وعاش ومات » ، لكنه على كل ، افاض في حديث عذب شائق مستحب ملأ انتظارنا ذلك الترام

الذي لا اراه مقبلاً إلا احسبه يتلكأ ويهم بالقفول (هـذا من عبث الخيال ، لان الترام بطيء ليس الا ، ويزيد في بطئـه انتظاري اياه . اما انه اخيراً يأتي فما لا ريب فيه .)

واخذ صديقي يحدثني عن فلسفة الملابس والازياء ، ملماً بوجهي الفن والاخلاق او الجمال والنفع ، قـائلا انهما على طرفي نقيض والغلبة ليست في النهاية للاخلاق او للاخلاقية السائدة في هذا العصر على هذا المجتمع . ومما اشار اليه اشارة خفية ان الحجاب لا « يؤدي وظيفته » في الحاضر او يؤديها معكوسة : اصبحنا فاذا بالحجاب الذي وضع لدرء الفتنة لا يحجب شيئاً بل يكشف عما قد لا يكون لو لم يكن حجاب . يقول دون جوان زير[1] الغرب او تقول اسطورته : «ان النصرانية اذ حرمت العشق اضافت الى ملذاته لذة جديدة وضاعفت المتعة به » . ومن ينكر غواية الاعراض الذي ترجو اقبـاله ، واغراء المنع الذي تطمع بقبوله ، ونعيم الحرمان الذي يمنى بالعطاء ؟ وهمّ صديقي ان يزيد : كذلك فتنة هذه الاحجية التي مرت بنا معجلة مغمورة بالاسرار كالطيف الشارد من حلم . لكن الترام اتى — ألم أقـل انه آت لا ريب فيه وان ابطأ ؟ .. العجلة من الشيطان لا من الترام — فاكتفى بان قال ، خاتماً الحديث : عن ذلك عزاءٌ ايهـا الصديق ، هو ان الحجاب الذي يفتن العـالمين ليس اول وضع

(١) الزير : الكثير الزيارة للنساء ، ودون جوان علم على رجل اشتهر بالمغامرة في حب النساء واختلطت سيرته بالاساطير .

اجتماعي اخلاقي انتهى الى غير غايته ... وبعد ؟ انه لجميل ، والطبيعة لن تغلب ، والناس الا قليلا مرآؤون. ثم سقطت بيننا هذه الكلمة : « الله ، ما اجمل هذا الحجاب ! » مترددة وجلة كورقة من اوراق الخريف . فاذا بصديقي المفتون ، امامي في مقدم « الحافلة » كشجرة تعرت من زينتها ، يحدث صامتاً عن كآبة الحرمان المقلق والم الشوق المذيب وعذاب النفس والحواس .

احسست ان صديقي في تلك الظهيرة لافيء له اتفيأه فانصرفت عنه . لكن ظالمت زمناً اسمع في نفسي صدى تلك الانغام التي انبعثت من الشجرة المزهرة ، تحت طالع مسعود .

١٩٢٥

فصل من
كتاب الشيطان
في الالهام الشعري

١

الشاعر ليس له شيطان
كالرجل لا ظل له . . .

قد يكون ثمة عالم آخر ، غير عالمنا المادي المنظور ، مأهول بالارواح الخيرة والشريرة ، لا يطلع عليه الناس جميعهم . ليس ما يمنع وجود ذلك العالم وقواه العجيبة ، فان ثبات البشر على الايمان به في صوره المختلفة لدليل قاطـع – لا اقول على وجوده بل على الحاجة اليه . وشيء يؤمن المرء بـه ويحس الى الايمان به حاجة ، لهو – وان يكن غير موجود فعلاً – أعظم خطراً واكبر أثراً في حياته ، من موجود لكنه يجهله ولا يؤمن به ولا يجد من جراء الكفر به نقصاً . ولعمري هل للاشياء في ذاتها وجود ام هي ظلال الفكر الانساني في هـذا الفضاء ؟ وهل للاشياء في ذاتها قيمـة ام هو الفكر الانساني يعطي القيم ويحرم منها ، كما يشاء ؟

وسواء أصح وجود ذلك العالم العجيب ام لم يصح ، فليس اجدر من الشعراء ان يكونوا به على اتصال ، وهم في كل عصر وجيل ، حملة الالهام العلوي الناطقون باللغة القدسية ، الذين يسترقون السمع من عالم الغيب استراقاً ليعود منه بانغامهم الساحرة ، ويملأون من محاسنه اعينهم ليخلعوا على الكون ، كلما ابلى من حلل الجمال حلة ، جمالا طريفاً . فلو لم يكن ذلك العالم موجوداً لأوجده الشعراء .

*

سألتُ ذات يوم : كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بعد أن كانوا على اتصال دائم بآبائنا واجدادنا ؟

فقيل لي : لقد رأوا الأنس في هذا الزمن « أشطن » منهم فلاذوا بالفرار ، وهالهم ما في عالمنا من الشرور والآثام فهجروه . وعلى كل فان الجن ما زالوا « يظهرون » لكنكم لا ترونهم انتم !

هذا جواب امريء متشائم يريد ان يبدي اسفه على العهود الخالية وحنينه اليها . والحقيقة ان العرب كانوا اسعد منا في فلواتهم حظاً ، وآنس في خلواتهم بصحبة تلك المخلوقات العجيبة . فان احدنا ليجد احياناً من شدة الشوق الى سماع احاديث غير هذه الاحاديث اليومية التي تعود سماعها من هؤلاء

الاناسي ، ما يرضى معه النزول :

ببلدة ، مثل ظهر الترس ، موحشة
للجن بالليل في حافاتها زجلُ ..

وليس اكبر فضلا ومنة على الناس من المفاجآت التي تقطع هذا السياق المملول في حوادث الحياة العاديـة ، فتذكرهم بانهم احياء ، بل ان هذه المفاجآت هي التي تغلي ثمن الحياة .

اتوا ناري فقلت : منون ؟ قالوا :
سراةُ الجن ! قلت : عموا ظلاما (١) !

الا ان هذا الرجل الذي طرقته الجن ، وقـد أوقد ناراً لطعامه ، لسعيد ! بوركت الجن الذين آنسوه في وحشته ! هو سمير بن الحارث الضبي ، اعني انه ليس صديقنـــا السيد حليم دموس (مثلا) الذي لم يطرقه الجن مرة واحـــدة ، ولن يطرقوه ، لا اذا اوقد ناراً لطعامـــه ، ولا اذا اشعل مصباحاً لنظم قصائده ، فان المسألة مسألة مزاج .

كان لكل شاعر من العرب شيطـان يلقي اليه الشعر ، يسمونه « التابع » او « الرئي » . فكان لحسان بن ثابت صاحب

---

(١) قوله « منون » اي من انتم ؟ ذكر علماء اللغة ان هذا اللفظ نادر الاستعمال . ورأيي ان قيمته هنا في ندرة استعماله ، فهي التي جعلته خليقاً ان يخاطب به الجن ، ولعل الانس لا يتخاطبون به فيما بينهم ، والله اعلم .

من بني الشيصبان (وهم قبيلة من الجن) فكانا يتنـاوبان قول الشعر —

فطوراً اقول وطوراً هُوَه ...

ولا مراء في ان اجود شعر حسان ما كان يلقيه اليه تابعه الشيصباني ، ولكن انى لنا اليوم بعلامة في الشيطانيـات يميز بعض القولين من بعض ؟

كذلك « ابو النجم »[1]. فان سألتني : من ابو النجم هذا ؟ اجبتك لا ادري — سوى انه الرجاز القائل مفتخراً :

اني وكل شاعر مـن البشر
شيطانه انثى وشيطاني ذكر !

وهذا بيت من الشعر اهديه الى القائلين بعدم المساواة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا الانسي ، فانهما على مـا يظهر ، ليسا بمتساويين ايضاً في عالم الجان . ولكن لا ننس ان في شعرائنا من يؤثر ان يكون شيطانه انثى: بشارة الخوري[2] مثلاً الذي قال (او قوله شيطانه) طائفة من احسن الشعر في المرأة والحب وما الى

(١) ابو النجم الفضل بن قدامة شاعر رجـاز ، في عصر بني امية ، توفي سنة ٧٤٧ م (١٣٠هـ)

(٢) بشارة الخوري : لبناني من اكابر شعراء العربية في العصر الحديث يلقب «بالاخطل الصغير » . ظهر له ديوان «الهوى والشباب» مشتملا على قسم شعره

ذلك [1]. والمسألة مسألة مزاج ايضاً : هذا شاعر يُلقى اليه — واحد ، ومـا اكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة طواحين الفاظ ! قل في هذا البلد السعيد من ليس يقول الشعر الا لأن شيطانه يغريه بقوله ، فاذا لم يقل كان وقراً على صدره ، او احس بمثل دبيب النمل في سويداء قلبه .

— ألك ايها الشاعر شيطان ؟ اذن فقل ثم قل ! والا فانقلب طاحوناً على ضفاف العاصي ...

دعوة مستجابة ، في ليلة القدر ، التي هي خير من الف شهر !

---

(١) اما شعره السياسي فقد غلبت صفات الذكورة في شيطانه (العمر فاخوري)

٢

نظر رسول الله الى زهير بن ابي سلمى
فقال : اللهم ، أعذني من شيطانه ...

وليس في شياطين الشعراء أعظم شأناً من «مسحل بن اثاثة» هاجس الاعشى[1] صناجة العرب الذي كان – على رأي بعض نقدة الشعر – أغزل النـــاس في بيت ، واشجعهم في بيت ، واخنثهم في بيت .

ولقد اجتمع الشاعر وشيطانه ذات يوم ، وجهاً لوجه ، فتحدثا كما يتحدث الرجل الى خياله في المرآة .

قال الشيطان ولم يعرف الاعشى بنفسه : من انت ، واين تقصد ؟

---

(١) الاعشى ميمون بن قيس ، شاعر جاهلي من اصحاب المعلقات العشر ، عرف بصناجة العرب لحسن النغم في شعره ولأنه كان يغني شعره ،

قال الشاعر : انا الاعشى ، اقصد قيس بن معديكرب .

– حياك الله ! اظنك امتدحته بشعر ، فأنشدنيه .

فانشد الاعشى مطلع القصيدة :

رحلت سمية ، غدوة ، اجمالها
غضباً عليك ، فما تقول بدا لها ؟

قال الشيطان : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟

– نعم .

– من « سمية » التي تنسب بها ؟

– لا اعرفها ، وانما هو اسم ألقي في روعي .

فنادى الشيطان : يا سمية ، اخرجي ! فاذا جارية خماسية خرجت ، فقالت : ما تريد يا أبت ؟

– انشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معديكرب ونسبت بك في اولها .

فاندفعت تنشد القصيدة حتى آتت على آخرها ، لم تخرم منها حرفاً ، ثم انصرفت . فقال الشيطان للشاعر :

– هل قلت شيئاً غير ذلك ؟

– نعم . قلت اهجي يزيد بن مسهر :

ودع هريرة ، ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً ، ايها الرجل ؟

– حسبك ! من « هريرة » هذه التي نسبت بها ؟

– لا اعرفها ، وسبيلها سبيل التي قبلها .

فنادى الشيطان : يا هريرة ! فاذا جارية قريبة السن من الاولى . فقال لها : انشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها يزيد بن مسهر .

فانشدتها من اولها الى آخرها ، لم تخرم منها حرفاً .

ويقول الاعشى ، وهو راوي هذا الحديث الذي تجده في كتاب « الاغاني »[1] بسنده المتصل : فسقط في يدي وتحيرت وتغشتني رعدة . ولكن الشيطان رثى لحاله ، فقال له وهو يضحك :

– ليفرخ روعك يا ابا بصير ! انا هاجسك مسحل بن اثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر .

وفي شعرائنا نفر لا يفتأون « ينفخوننا » باحاديث مكذوبة عن « سميات » و « هريرات » لم يعرفوهن قط ، لعلة بسيطة هي انهن لم يوجدن الا في الغزل العربي الذي يقلدونه تقليد القردة .

ومـا جزاء هؤلاء الشعراء – اصطلاحا ، او كما يسمون

(١) الاغاني كتاب في واحد وعشرين جزءاً ، لابي الفرج الاصفهاني ، كاتب من ائمة الادب العربي ، عاش في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)

انفسهم – الا ان يقفوا ، في حضرة مارد من الجان كمسحل ابن اثاثة ، وقفة الممتحَن الذي « لم يحفظ درسه » . فلن يقولوا له حينئذ : « ان شيطاننا القى في روعنا هذا الاسم او ذاك ، فهو يعلم من سمية وهريرة وهند ودعد ومي وهلمجرا .. » يقيناً ، لن يقولوا له ذلك ، ومن ادرى من مسحل بانه ليس لهؤلاء شيطان ؟ والمسألة مسألة مزاج ، فان الجن ما زالوا يظهرون او يعزفون وإن لم يكتب لعامة الناس ان يروهم او يسمعوا عزيفهم ، كما ان عبقر [1] لم يذهب به زلزال ولكن ليس بعبقري من اراد او من ادعى العبقرية .

وممن اعترف من شعراء العرب بان شيطاناً كان يلقي الشعر على لسانه جرير [2] القائل :

اني ليلقي عليّ الشعر مكتهل
من الشياطين . . . .

فقدر جرير ، بعون شيطانه ، على مهاجاة مائة شاعر

(١) عبقر موضع يكثر فيه الجن ، ثم نسب العرب اليه كل شيء تعجبوا من قوته وحسنه . ومعنى لفظة Genie في اصلها اللاتيني « الشيطان المؤاتي او المفضل » فإذن هي ولفظة «عبقري» العربية اصلا واصطلاحاً ، اختان . (التعليق لعمر فاخوري) .

(٢) جرير (٦٤٠ – ٧٢٨ م) (٢٨ – ١١٠ هـ) ، احد شعراء المثلث الاموي . اشتهر بشدة الهجاء ورقة الغزل .

وشاعر ، أسكتهم واخزاهم جميعاً . وكذلك الفرزدق[1]، اقر بانه كان يستغيث بشيطانه كلما اعياه قول الشعر ، فاذا اغاثه قال واجاد .

اما « السنقناق » فهو شيطان بشار بن برد الأعمى[2] . وهنا مسألة : كيف كان السنقناق يظهر لبشار ؟ الجواب - ان كان لكل مسألة جواب - هو ان عيني الأعمى ، لا سيما اذا كان بشاراً ، تكونان مفتوحتين على باطنه ، فكان بشار يرى شيطانه في نفسه .

ولم يختص بالجن الشعراء وحدهم ، بل كان للمغنين منهم نصيب . وهذا « زرياب » إمامهم في الاندلس ، الذي زاد في اوتار العود وتراً خامساً ، اختراعاً منه - يقول ان الجن كانت تعلمه . ولعل الوتر الخامس مما آتاه شيطانه ليزيد في سحر الفن . وهذا مصداق ما يذهب اليه بعضهم من ان الفنون الجميلة ، وخاصة الشعر والموسيقى ، هي من صنع ابليس وكيده ، ان كيده لعظيم !

---

(١) الفرزدق احد شعراء المثلث الاموي . استمر الهجاء بينه وبين جرير ، فتفوق على جرير بالفخر .

(٢) بشار بن برد (٧١٤ - ٧٨٤ م) (٩٥ - ١٦٧ هـ) من كبار شعراء العربية في اواخر العصر الاموي واوائل العباسي . كان فاتحة طبقة المجددين . اشتهر فنون من الشعر : الهجاء الغزل ، الوصف ، الشعر السياسي .

٣

لم ينفرد العرب بمعرفة هـذه الارواح الخيرة التي تعين الخلق على احتمال آلام الحياة ودواعي السأم فيها ، بما توحيه الى هؤلاء الميامين الذين نسميهم بالموسيقيين والشعراء وارباب الفنون . فقد كان للاغريق القدماء إله يدعى «ابوللون» هو إله الموسيقى والرقص والشعر والالهام ، يعنو لعزته وجلاله شاعرهم ونبيهم على السواء ، إذ كان يكشف للنبي عن المغيبات ويجري عـلى لسان الشاعر اغاني الحماسة . وكان موطن ابوللون على الاكثر، جبـل «البرناس» المكسوة جنباته بالغابات والرياض ، الريانة مروجه بماء الينبوع الاقدس .

هنالك كانت ربات الوحي Muses يحففن بالإله العظيم ، عازفات على الاوتار، منشدات ، مسبحات بحمد الآلهة . وكانت صواحب ابوللون تسعاً ، منهن «اوترب» ربـة الشعر الغنائي ، و «كاليوب» الموحية الى الشعراء باساطير الاولين . فهل تعجب

من ان الاغريق في العصور الخالية سمُوا الى سماء الفن والشعر ، وهؤلاء الآلهات والآلهة جميعاً في عون فنانيهم وشعرائهم ؟

*

ذكر لي الاستاذ الريحاني ان العرب في «عسير» الأعلى يقولون اليوم عن الشاعر : «هو رجل سقته الجن» وانه سأل احدهم كيف يكون ذلك ؟ فأجابه ان الشاعر إذا اراد نظم قصيدة ، يصعد الى قمة جبل هناك ومعه شاة يذبحها ويقربها قرباناً . ثم يضطجع في ظل شجرة ، فإذا تُقبل قربانه احس في نومه كأنه يُسقى شيئاً، فينهض ويقول الشعر... في عسير الأعلى اذن «برناس» عربي تسرع فيه الجنيات الحسان اللواتي يُرضعن الشعراء من لبانهن الزلال ، لتعذب السنتهم...

*

يروى ان الإله الاغريقي «ديونيزوس» كان يأتي الشاعر «اشيل» في منامه فيملي عليه قصصه التراجيدية . فإذا لم نصدق بهذا ، فهل نكذب ايضا سقراط [1] الذي اقر ، وهو الحكيم ، بأن له شيطاناً ؟

---

(١) سقراط ، فيلسوف اخلاقي من فلاسفة الاغريق (٤٧٠ – ٣٩٩ ق‌م). حكم عليه قضاة اثينا بشرب السم ، لاتهامهم اياه ، بافساد الشبيبة . يعتبر من كبار ضحايا حق التفكير المستقل في التاريخ .

والشاعر الايطالي «تاسو»[1] كان يزوره في ليالي الارق روح عجيب ، فيعطف على وسادته ويجاذبه اطراف الحديث. ويقول «فوربس» من معاصري شكسبير[2] ان السحر كان في اسرة الشاعر الانكليزي الاشهر، وانه كان يتعاطى فنونه التي تلقاها عن اهله. فالجيد الذي في قصصه التمثيلية هو من وحي شيطانه .

اما الشاعر الفرنسي «بوالو»[3] القائل في قصيدة هجاء باللاتيني الحديث : «شيطان الشعر ! كيف تأمرني ، وأنا الغريب المنبت ، المولود وراء الالب ، ان اعسف النظم اللاتيني لا انفك اتخبط في معاميه؟» فهو صاحب ارجوزة في صناعة الشعر ، فيها من الشعر بقدر ما في «الفية ابن مالك»[4]. ولهذا نقول انه يكذب في زعمه ان شيطان الشعر امره بشيء ، الا ان يكون امره بان يسكت ، رحمة بالناس .

اني لاكاد اسمع القاريء يقاطعني وهو يبتسم ، غير مصدق

---

(١) تور كواتو تاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥ م) ، شاعر ايطالي اشتهر بقصيدته المطولة : « اورشليم المنقذة » .

(٢) وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦ م) شاعر انكليزي ومؤلف مسرحي عالمي : اشتهر بطائفة من المآسي والملاهي والدرامات ، والقصائد الغنائية .

(٣) بوالو (١٦٣٦ - ١٧١١ م) شاعر فرنسي تعليمي ونقادة اشتهر باثره : « الفن الشعري » ،

(٤) محمد بن مالك (١٢٠٣ - ١٢٧٣ م) (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) من علماء العربية ، اشتهر بارجوزة في قواعد اللغة سماها « الالفية » .

شيئاً من هذا الحديث ، بقوله :

– وبعد ؟ اكثرْ ما شئت من الشواهد النقلية ، وعزز ما وجدت الى ذلك سبيلا ، اقوال العرب باقوال الافرنج ... فلن اؤمن قط بأن الشاعر يوحي اليه إله من آلهة البرناس ، او يلقي على لسانه الشعر شيطان من شياطين الفلوات . بل ايش تلك الآلهة الاغريقية وايش هذه الشياطين العربية ؟

فأنا اجيب بقولي: عفواً يا سيدي القارىء .. اما اذا اردتني على طرح هذه الاقوال والشواهد جميعاً،يقين، انها صرف كذب ومحض اختلاق او ضرب من الهذيان لا يقوم على اساس ، فلا . وأمّا إذا اعتبرتها «واقعاً» لا يسعنا انكاره على الصورة القطعية، بل ينبغي النظر فيه وتأويله علمياً اذا امكن ، لأن الهذيان نفسه «حقيقة» تقوم على اساس ويستطاع تأويله علمياً ، فأنا معك . ولكن هذا بحث تضيق بـه مقالة اليوم وسأعقد له مقالة اخيرة تكون ختام الكلام في الشعر وشياطينه . وأحب ، قبل ذلك، ان انقل اليك نادرة طريفة من نوادر الميثولوجيا العربية ، على رجاء ان تجد فيها لذة وفائدة :

نشأ بسجستان في اواخر القرن الثاني للهجرة رجل يدعى سهل بن ابي غالب الخزرجي ويلقب بأبي السري ، ادعى رضاع الجن (مثل شاعر جبل عسير الاعلى) وان صلته بهم محكمة . ثم وضع كتاباً ذكر فيه كثيراً من اخبارهم ووقائعهم وحكمتهم

وانسابهم واشعارهم ، وزعم انه بايعهم الأمين بن هرون الرشيد بولاية العهد ، فقربه الرشيد وزبيدة وابنها الامين ، واجازوه جوائز سنية . ثم اخذ ينقل اليهم ، حيناً بعد حين ، شعراً جيداً من نظم الجن والشياطين والسعالى ..

– وهل صدق الرشيد هذه الخرافة ؟

– ان الرشيد لم يصدق ولم يكذب ، بل قال له : «ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً ، وان كنت ما رأيته فقد وضعت ادباً . ولست اسأل القاريء الآن ، الا ان يقول بقول الخليفة العباسي ، فهو حسبي .

٤

يقول ابو اسحق[١] المتكلم من اصحاب الجاحظ ما خلاصته :
«إذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فيرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يُسمع .. فإذا توسط الفيافي واشتملت عليه الغيطان في الليالي الحنادس ، تجده عند اول وحشة او فزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ..» على هذه الصورة يشرح الاعتقاد بالكائنات الخارقة ، كالجن والشياطين والسعالى التي آمن العرب بها وآمن بمثلها اقوام آخرون . ولعل ابا اسحق لم يجد في شرحه هذا مقنعاً ، فلم يلبث أن زاد عليه قوله : «وربما كان في الاصل كذاباً صاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة : رأيت الغيلان وكلمت السعلاة.

---

(١) ابراهيم بن سيار النظام (٨٠١ - ٨٣٦ م) (١٨٥ - ٢٢١ هـ) احد أئمة المعتزلة واستاذ الجاحظ .

ثم يتجاوزه الى ان يقول : رافقتها ، ثم يقول : تزوجتها .. ، وهكذا ، اي انه – رغم اجادته في تصوير الظرف المادي الذي قد يكون له بعض الاثر في تلك الظاهرة السيكولوجية – انتهى بشرح احدى العقائد العامة التي عـاش عليها البشر وما زالوا ، اوهن شرح بأهون حجة ، نعني حجة الكذب ، فهو إذن لم يشرح شيئاً . وليس ايسر عـلى المرء الذي يحـدث حديثاً لا يفهمه ولا يجد تأويله من ان يجبه محدثه بهذه الكلمة الموجزة التي تغني عن كل تطويل وتدفع كل هم : انك لكاذب !

ولا يلتبس الأمر على القاريء! فلست بالناعي على ابي اسحق انكاره الجن والشياطين وسواها ، كما اني لم ارم الى اثبات ان لهذه العجائب وجوداً حقيقياً فعلياً مستقلاً عن الأناسي الذين رأوها او «توهموها» . ولكني اسأل نفسي ، اذ لم اجد مقنعاً في ذلك «التكذيب» : كيف يري الانسان (كما يقول هو) ما لا يُرى ، ويسمع ما لا يُسمع ؟ أليس هذا امراً عجيباً جديراً بأن نعرف تأويله ؟ هل للعلم الحديث كلمة يقولها ، في هذا الباب ، غير كلمة «كذبت»؟. فأما وقد ذكرت «العلم الحديث» فأني اعتذر الى أبي اسحق المتكلم الذي عاش في القرن الثالث للهجرة، عن مطالبته بما لم يُعلم الا بعد الف سنة . وحسبه انه طرح ، في صورة الجواب ، ذلك السؤال ..

*

كان القدماء من الاغريق والرومان يقولون ان للشاعر الملهم بصراً ينفذ الى ما وراء العالم المادي الظاهر – الى عـالم الغيب . وكان الشاعر يُسمى باللاتينية Vates ومعناه « النبي » . ولقد عكس العرب القضية اذ وصفوا النبي محمـداً « ص » بأنه شاعر وقالوا : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ! » فأنكر النبي انه شاعر : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو الاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين » ، وتحدى العرب بسورة منه ، بـل بآية من سورة . ورُوي انه كان إذا تمثل بيتاً من الشعر لا يقيم وزنه بل يكسره ويتمثل البيت مكسوراً – مبالغة في دفـع التهمة . ويقول الجاحظ في هذا المعنى : « سمّى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كلامهم ، على الجملة والتفصيل : سمّى جملته قرآناً كما سمّوا ديواناً ، وبعضه سورة كقصيدة ، وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية . » أترى الجاحظ يشير في عبارته هـذه الى امرٍ ما – الى الاعتذار للعرب عن خلطهم بين الشعر الذي يعرفونه وهذه الآي المنزلة ، دون أن يؤخذوا باختلاف الاسماء؟ ليس ذلك عـلى خبثه بعزيز . ولكن رأيي هو انهم بزعمهم ان القرآن شعر والنبي شاعر ، تجـاوزوا الصور والمبـاني – اي السورة والقصيدة ، والآية والبيت ، والفاصلة والقافية – الى الجوهر ، جوهر الشعر ، عـلى نحو ما فعـل الرومان القدماء اذ سموا شاعرهم نبياً يوحى اليه .

*

سموا الشاعر الملهم نبياء اعتقاد انه ليس بشراً مثلهم بل هو بشر وزيادة .. وهذه الزيادة انما تأتيه من الشيطان العربي الذي يلقي الشعر على لسانه ، او من «الموز» اليونانية التي توحيه اليه، او من الإله الروماني الذي ينزل الآيات عليه تنزيلا. وهذه الزيادة هي انه يرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يُسمع ، كما قال ابو اسحق المتكلم . ولا يندر في الشعراء والفنانين – الفحول العبقريين – من يعتقد مثل هذا الاعتقاد . فان الشاعر العبقري الذي يبهر عامة الناس ببديع معناه ويسحرهم برائع قوله حتى يسمعوا كالصوت الهابط من الملكوت الاعلى ، يكبر هو ايضاً هذا الاعجاز ويعجب من انه هو مستودعه ومظهره ويتساءل مشدوهاً : من أين ، ممن هذه الامانة العظيمة ؟ ذلك ان العبقرية شذوذ ، شذوذ بلا مراء ، لكنه أدى بعضهم الى اعتبارها مرضاً أو عاهة في الجهاز العصبي ، ويذهب «لومبروزو»[1] الى انها صورة ملطفة من داء الصرع ، تصحبها نوبات مفاجئة عنيفة ، يتبعها خور جسماني شديد .

أجل ، ان كثيراً من العلماء يردون اليوم هذا الرأي قائلين ان أغلب العبقريين المرضى كانوا اولي عبقرية رغم الامراض التي اصيبوا بها ، لا بسبب تلك الامراض ، سواء أكانت عصبية أم

(١) سيزار لومبروزو (١٨٣٦ – ١٩٠٩) عالم جرائمي من علماء الطليان . من رأيه ان المجرم انموذج خاص من البشر ، وان العبقري انسان « منحل » وثيق الصلة بالجنون

غـير ذلك ، فالمرض في الرجل العبقري ليس قاعدة عـامة بل حالة استثنائية. ولكن هؤلاء العلماء ، على كل ، ليسوا بمنكرين ان العبقرية بحد ذاتها ، سواء الصحيحة والعليلة ، شذوذ كما سبق القول، شذوذ يراه صاحبه في نفسه ويراه فيه عامة الناس، فيشدهم ويبهرهم ، ثم تعييهم الحيلة ولا يجدون تأويله ، فيحيلونه على عالم غير عالمنا الظاهر ويعزونه الى قوى غـير قواه المعروفة : الجن وموحية الشعر والإله، وهي رموز سننظر فيما وراءها، أو اسماء لعلنا نوفق الى معرفة مسمياتها .

*

٥

ابو عامر بن شهيد من عيون ادباء الأندلس وشعرائها عاش في القرنين الرابع والخامس للهجرة . له رسالة اسمها «التوابع والزوابع» كثيرة الشبه برسالة «الغفران» للمعري ، يقول في اولها ان شيطانه زهير بن نمير زاره يوماً فتذاكر معه اخبار الخطباء والشعراء مع التوابع والزوابع[1] وأظهر رغبة في لقائهم والتحدث اليهم . فاركبه الجنيّ متن جواد أدهم « سار بنا – كما يقول – كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو[2] فالدو ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا . . فقال لي زهير : حللت أرض الجن ، ابا عامر ! » .

وهناك في أرض الجن ، لم يجتمع الأدب الأندلسي بخطباء العرب وشعرائهم (وفي هذا احد الفروق بين رسالته ورسالة ابي

(١) تقدم ان العرب كانوا يسمون شيطان الشاعر : الرئي والتابع . فكذلك الزوبعة هو الشيطان او رئيس الجن . (التعليق لعمر فاخوري)
(٢) الدو : البرية والقفر .

العلاء) بل باصحابهم الذين كانوا يلقون رائع الشعر وبديع القول على لسانهم ، من شيطان امرىء القيس الى شيطان ابي نواس[١]، كأن هؤلاء الشعراء ليسوا شيئاً مذكوراً ، لكنهم ظلال اولئك التوابع والزوابع في عالم الغيب – ظلال تُلقى على عالمنا هذا : الشاعر هو ظل شيطانه على الأرض .

لم نذكر ابن شهيد لنأتي على ذكر رسالته الممتعة عن شياطين الشعراء ثم نقف عند حد التنويه باسلوبه الطريف . كلا ، فأن له فيما عدا ذلك رأياً في الأدب قيّماً ، ذا صلة بما نحن في صدده . يقول من كلام له على الطبع والشعراء المطبوعين : « ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه[٢] فمن كانت نفسه من اصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها .. ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالبُ عليه جسمه ، كان ما يُطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صور رائعة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس . فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ،

---

(١) ابو نواس الحسن بن هاني (٧٦٣ – ٨١٤ م) (١٤٦ – ١٩٧ هـ) شاعر عباسي ، اشتهر باخراج الشعر العربي من جوه البدوي الى الحضري. وابدع في الخمر .

(٢) ألم نقل اكثر من مرة ان المسألة مسألة مزاج ؟ (التعليق لعمر فاخوري)

والجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : ان يتركب الحسنُ من غير الحسن ، كقول امريء القيس :

تنوّرتُها من اذرعات ، واهلها
بيثرب ، أدنى دارها نظرٌ عال !

«فهذه الديباجة اذا تطلبت لها اصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى.»

ويقول الدكتور أحمد ضيف [١] في كتابه « بلاغة العرب في الاندلس » : « وهو – اي ابن شهيد – يميل الى ان الافتنان في الكلام او البراعة في النظم والنثر أو ما يسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام أو شيء من الغيبيات أو سر من أسرار النفوس ..»

سر من أسرار النفوس ! فما هو هذا السر الذي سماه الاولون : الشيطان و «الموز» Muse والإله ؟ أو ما هي حقيقة الوحي والالهام في الابداع الفني والشعري ، والجواب على المسألتين واحد ؟

يقول الكاتب الفرنسي بول بورجه [٢] : «ان النفس الإنسانية

---

(١) احمد ضيف : اديب مصري معاصر .
(٢) بول بورجه : روائي فرنسي ، ونقادة في القرن التاسع عشر والعشرين ، اشتهر بالروايات التي نحا فيها منحى التحليل النفسي على طريقته .

كالأرخبيل الذي تبرز جزره على سطح البحر ، وما الجزر الا ذروات بادية للعيان من اساس غير ظاهرة ، بل من جبال تغمرها الامواج . فكذلك تقوم افكارنا وعواطفنا وارادتنا على بناء سيكولوجي عظيم خفيت آساسه عنا وعن سوانا . »
وهذا البناء الخفي أو الباطن هو ما يسمى في السيكولوجيا الحديثة باللاوجداني Inconscient ومن اعماقه يصعد الوحي الفني والالهام الشعري اللذان لا يهبطان ، كما ترى وكما هو الشائع ، من عليين . والاعتقاد بأن للشاعر شيطاناً يلقي الشعر على لسانه لا «موزاً» من بنات الآلهة توحيه اليه ، أقرب الى هذا الرأي العلمي ، لأن الشياطين ، كما هو معروف ، هي من العوالم «السفلية» .

فكل فاعلية فنية أو شعرية عظيمة — في الفنانين والشعراء العبقريين على الأخص — لها جذور تستشري فيما وراء الادراك أي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الإنسانية . ومن هذا اللاوجداني مادة الابداع في الفن والشعر ، وفيه تأويل ما كان القدماء لا يعرفون تأويله من حالات الوجد والكشف ، والوحي والالهام ، فيرمزون عنه بالموز والإله والشيطان . ولذلك كان كثير من الفنانين يتوسلون لإيجاد تلك الحالات في أنفسهم ، بضروب من المهيجات : كقهوة فلتير وبلزاك [1] ، وكحول

(١) بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) : روائي فرنسي عالمي ، اشتهر بسلسلة رواياته « الملهاة البشرية » .

بو[1] وهوفمان[2] وموسه[3]، وكوكايين موبسان[4]، وغيرهم، وهي مهيجات لما في اعماق اللاوجداني من العناصر الكامنة التي تثور حينئذ وتطفو على سطح الوجدان، فتتألف منها آيات الفن والشعر – كما تبدو احياناً في عرض البحر، بين بكرة وضحاها، جزيرات لم يرها الرحالون من قبل، ولكنها برزت فجأة بفعل النشاط الخفي العظيم في بطن الارض، فهم ينظرون اليها مشدوهين ولا يكادون يصدقون.

وليس يعني هذا ان العبقرية، لاستمدادها من اللاوجداني وهي المنطقة التي لا سلطان للادراك عليها، تكون فوضى بلا نظام. اجل انها تصعد من تلك الاعماق البعيدة خليطاً من شتى العناصر، الا انها لا تلبث ان تدخلها في الوجداني وهي المنطقة التي يسيطر العقل عليها، وفيها تعمل بعناء او من غير عناء، بجهد أو من غير جهد، على تحقيق اجمل نظام وحدة في اكثر العناصر اختلافاً، وهذه هي معجزة العبقري.

١٩٢٦

---

(١) ادغاربو (١٨٠٩ – ١٨٤٩): شاعر كاتب اميركي اشتهر باثرين: «قصائد» و«قصص من عالم الغموض والخيال».

(٢) اشتهر كثير من الالمان باسم هوفمان. ولعل المؤلف هنا يعني ارنست هوفمان (١٧٦٦ – ١٨٢٢ م) الروائي الموسيقي. او اغست هوفمان (١٧٩٨ – ١٨٧٤ م) الشاعر.

(٣) موسه (١٨١٠ – ١٨٥٧ م): شاعر فرنسي ومنطيقي مشهور.

(٤) موبسان (١٨٥٠ – ١٨٩٣) قصاص فرنسي من اشهر مؤلفاته «كتلة الشحم».

الشاعر الشهيد

هذه كلمة صديق في صديقه .

كنا في المدرسة وبعدها ، ثلاثة أو أربعة من الفتيان لا نكاد نفترق ، وكان يجمع بيننا الصلة التي تجمع بين المسافرين أو رفاق السفر ، وكانت رحلتنا الى «المستقبل» في طريق سهل مهدته طيوف الخيال ، وكان في «زوادتنا» كثير من الأماني والأحلام.

وكان عمر حمد أحد هؤلاء الثلاثة أو الأربعة — خير رفيق ، يؤنسنا بشعره الذي كان لا يفتأ يترنم به كأنه يستحث عزائمنا، ويستفز قوانا ، حتى نصل الى الغاية التي كنا نتخيلها تخيلاً ، بل نتوهمها . . وها قد تصرّمت الاعوام ولم يذته واحد منا حيث كان يرجو ، ما أطول الشقة ! . . لقد انتقلنا من عالم الخيال الى الحقيقة .

اعدت ذات يوم ذكرى ذلك العهد البعيد القريب ، ذكرى الصبى ، فقلت ان احد اصدقائنا ، لما سئل : ماذا يطمع ان يكون في المستقبل ؟ — أجاب : الخليفة ! وكان عمر حمد يرجو

ان يكون شاعر الخليفة . أما «الخليفة» فقد استيقظ من هـذا الحلم كما استيقظ من مثله الصياد، أحد أبطال «الف ليلة وليلة». وأما «شاعر الخليفة» فقد نام، رحمه الله، نومة لا تؤنس وحشتها طيوف الاحلام .

*

وبعد ، فهذا المختار من شعر عمر حمد نزفه الى أبناء الضاد ، احياء لذكرى الشهيد وتكريماً له . فهو ترجمان الروح التي كانت سائدة على النشء في تلك الأيام . وكان إذ يتلوه ناظمه ، يثير في نفوس السامعين حماسة لا توصف ، واعجاباً ليس له حـد . ولو مد الله في عمر صاحب الديوان لأصبح من فحول شعرائنا ، فقد كان مطبوعاً عـلى النظم ، وكان منصرفاً اليه بكليته ، وكان له كثير من المشجعين . لكن عمر حمد في حياته القصيرة ، لم يكن سوى شهاب سطع بغتة في سماء الشعر ثم هوى ، او زهرة مـا تفتحت عن نضرتها حتى ذوت .

*

ولد عمر حمدفي بيروت حوالي سنة ١٣١١هـ.[١] وجدّه السيد حمد ، مصريّ الاصل هاجر الى هذه البلاد في زمن الامير بشير

(١) ١٨٩٣ م (؟)

الشهابي . وكان في الثامنة من عمره إذ ختم القرآن الكريم للمرة الرابعه متتلمذاً للشيخ شاتيلا المشهور في هذا البلد . وتوفي والده السيد مصطفى حمد قبل ان يجاوز الفقيد التاسعة من عمره ، فاضطر الى ترك المدرسة، واشتغل في السوق نحو أربع سنوات. ثم أدخل الكلية الاسلامية ، فتلقى فيها دروسه على اختلاف أنواعها ، وأخذ ينظم الشعر ، وأكثر القصائد المجموعة في هذا الديوان هي ممّا القاه الفقيد في نادي تلك الكلية العزيزة . واني لأتمثل الآن عمر حمد رحمه الله ، واقفاً على المنبر ، يتغنى بمجد العرب الغابرين ويندب سوء حالهم الحاضر ، مستحثاً العزائم ، مستفزاً الهمم ، فأتمثل الحماسة متجسدة في ذلك الفتى الاسمر ، الطويل القامة ، الجهوري الصوت .

وفي سنة ١٩١٢ م. أتم الفقيد دروسه في الكلية الاسلامية ونال شهادة «البكالوريا» فالقى في حفلة توزيع الشهادات عامئذ قصيدته القصصية «المروءة والوفاء» المنشورة في هذا الديوان . لكنه لم يترك المدرسة التي انجبته وقضى فيها سني صباه العذبة ، فقبلته معلماً للعربية وتاريخ الاسلام في القسم الاستعدادي، وكان في الوقت نفسه يحرر في بعض الصحف المحلية .

ثم نشبت الحرب العامة، فحملته عاصفتها الهوجاء الى دمشق ضابطاً احتياطياً ، فمكث فيها نحو ثلاثة أشهر . وكان الطاغية جمال باشا قد بدأ بتنفيذ مشروعه الدموي الذي يرمي الى القضاء

على كل نزعة استقلالية في البلاد العربية قضاء مبرماً ، والقى القبض على نفر من ابناء الوطن الاحرار وزجهم في سجن عاليه. وكان عبد الغني العريسي[1] والامير عارف الشهابي[2] وعمر حمد ، رحمهم الله ، متيقنين ان دورهم آتٍ لا بد منه، ففروا من دمشق في بدء سنة ١٩١٥ مرتدين ثياب البدو ، سالكين سبل البادية العربية ، وظلوا شريدين طريدين نحو ثمانية اشهر حتى قبض الترك عليهم في مداين صالح ، اذ اوشكوا ان ينجوا بانفسهم ويبلغوا «ام القرى» مهد الثورة .

وقضى صاحب هذا الديوان في غيابة السجن نحو أربعة أشهر، معذباً مضطهداً، لكن نفسه الابية لم تَهِن ولم تهُن، ولا زال من عرفه في ذلك الجحيم السياسي يذكر جرأته وصبره ورباطة جأشه وقوة إيمانه .

وفي السادس من أيار سنة ١٩١٦ جيء بالفقيد ورفاقه الى بيروت ثم قادتهم الزبانية الى ساحة الشهداء ، فمشوا يهتفون للعرب ولاستقلالهم ويتغنون باناشيد الحماسة . وفاضت روح المرحوم عمر حمد بين أرواح صحبه الطاهرة على اعواد المشانق ،

---

(١) عبد الغني العريسي ، احد الشهداء . نفذ فيه الاتراك حكم الاعدام شنقاً ببيروت سنة ١٩١٦ م (١٣٣٣ هـ) . كاتب مفكر صحفي اشترك في المؤتمر العربي الاول بباريس . اكثر آثاره في جريدة « المفيد »

(٢) عارف الشهابي (١٨٩٠ – ١٩١٦ م) (١٣٠٧ – ١٣٣٤ هـ) احد الشهداء الذين علقهم الاتراك . كان حقوقياً صحفياً مشهوراً .

فكان ميتاً ابلغ منه حيـاً ، ولعل شهادة عمر حمد لاعلاء كلمة امته ، اشجى قصيدة ينظمها شاعر ، وأروع نشيد ترفعه الارض الى السماء ، رحمه الله رحمة واسعة .

١٩٢٨

الشاعر في السوق

الادب صناعة . واذا كانت صناعة الأدب تختلف عن سائر الصناعات من بعض الوجوه ، فهي تشبهها من وجوه أخرى : تشبهها من جهة ان محاصيلها ، ونعني «المصنوعات» الادبية لا بد ان تطرح للبيع في اسواقها الخاصة ، او بالاقل ان تعرض على الجمهور وتقدم اليه خالصة بلا مقابل ، اللهم الا رضاه وتحبيذه واستحسانه ، وليس هذا بالثمن البخس عند كثيرين .

هل تعرفون شاعراً يكد قريحته ليل نهار ، فينظم قصيدة عصماء فلا يهمه بعد ذلك الا ان يتغنى بابياتها في خلواته ، راضياً ناعم البال ؟ او خطيباً يجهد ذهنه ساعات طوالا ، فيؤلف خطبة بليغة ، فلا يهمه بعد ذلك الا ان يحملها معه في «الترام» الى ساحل «شوران» حيث يلقيها على تلك الامواج الزاخرة كالجماهير ، سعيد النفس باصطفاق الماء ، مستغنياً به عن تصفيق الايدي ؟ او كاتباً راوية يقضي الأيام باحثاً متفكراً متخيلاً ، فيدبج قصة ممتعة شائقة ، فلا يهمه بعد ذلك الا ان يمضي بدفتره الى غابة الصنوبر ليتلو على مسامع اشجارها ، وكل اوراقها آذان ،

ما كتب ، فيخيل اليه انها تتحرك طربا ، او تبسط أغصانها لمصافحته ، او تقوم على ساقها من فرط الاعجاب به ؟

اذا كنتم تعرفون هذا الكاتب وذاك الخطيب وذلك الشاعر فدلوني عليهم . ولا تنسوا ان كل قصيدة عند ناظمها عصماء ، وكل خطبة عند صاحبها بليغة ، وكل قصة عند مؤلفها ممتعة شائقة ، والله اعلم .

*

كان لي صديق من الشعراء[1] كنت ادعوه «شاعري» ويدعوني «راويته» لأنه — رحمه الله — كان اذا نظم القصيدة او بيتين منها لا يقر له قرار ولا يرتاح باله حتى يسمعني القصيدة او البيتين «اولاً بأول» قبل أن ينشدها في الحفلة او ينشرها في الصحيفة . وكثيراً ما كان يجيئني في ساعة متأخرة من الليل فيوقظني واهلي النيام ، بحجة ان «عليه بيضة» كما يقول العامة ، ويجب ان يبيضها . فكنت اقول له: حسن ! لقد «بيّضتها» . . . نراك بخير !

وفي يوم من الأيام تقدم نحوي كالمغضب مهرولاً ، فقال لي دون سلام : اين انت ؟ انا في طلبك منذ امس . انتهت القصيدة ولم اجدك . . . لم أجد واحداً من اخواننا ، كأنكم اختفيتم بين

---

(١) عمر حمد . (التعليق لعمر فاخوري) .

الارض والسماء . لقد ضقت ذرعـاً . . . كدت اموت . هل تعلم ماذا صنعت ؟ لم اظفر في بيتنا إلا بجدتي العجوز «على البركة» فانشدتها القصيدة من اولها الى آخرها دون شفقة ، فكانت تهوّم عند كل بيت ورأسها على صدرها . ولكني لم اقطع الحديث الى النهاية . ثم سألتها رأيها : « كيف ؟ يا جدتي . » فأجابت : «رُح ! الله يرضى عليك » . ولكن ما لنا ولهذا .. اسمع الآن .

وقد سمعت . سمعت وأنا افكر في الحيزبون[1] الجليلة التي لم تفهم من ذلك الكلام الا ان حفيدها « عالم . . . يقرأ ويكتب » وفي ذلك الشاعر الخنذيذ[2] الذي ينشد الجمهور ، ممثلاً في جدته الوسنى ، قصيدته العصماء .

*

إذن فالادب صناعة مثل كل الصناعات ، يتوجه اهلها الى الجمهور ابتغاء مرضاته ويعرضون عليه «بضاعتهم» رجـاء ان يتقبلها قبولاً حسناً ، ان يقبل عليها ، ان تنفق في السوق . وإذن فلا مناص للأديب – سواء الشاعر على أنواع شعره ، ام الناثر على أنواع نثره – من ان يعرف حاجة الجمهور وطلبه ، ليكفي تلك الحـاجة ويلبي هـذا الطلب : ان للناموس الاقتصادي المشهور

(١) الحيزبون : العجوز
(٢) الشاعر الخنذيذ : الشاعر المجيد .

شأنه هنا .

ولكن اي جمهور؟ هل يوجد جمهور واحد ام جماهير مختلفة؟ ان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة «ابي زيد الهلالي»[1] وأمثالها، وبين الذين تسمو نفوسهم الى «لزوميات»[2] المعري[3] وأشباهها — ان المسافة بين هؤلاء واولئك لبعيدة، جد بعيدة. وليس ادعى الى الضحك ولا ابلغ في الهجنة من ان نشهد «ابا زيد الهلالي» بحجة انه بطل صنديد، وقرم عنيد، ومدجج بالحديد — هاجماً على ابي العلاء الاعمى المسكين، ولسان حاله يقول : «مت! لا حاجة بنا اليك!»

ولا احسب «ابا زيد» هذا، مهما كثر عديده، قادراً ذات يوم، على قتل المعري، كما ان المعري لم يوفق الى نسخ آية «أبي زيد» كل التوفيق. بيد ان الادب في كل امة وكل عصر يظل،

---

(١) ابو زيد الهلالي : احد ابطال « سيرة بني هلال »: القصة الشعبية العربية المشهورة.

(٢) اللزوميات ديوان مشهور للمعري، حافل بالانتقادات والتاملات في العقائد والسلوك البشري. سماه اللزميات لانه التزم فيه حرفين في القافية حيث يكفي حرف واحد، والتزم ثلاثة احرف، حيث يكفي الحرفان.

٣) المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) : شاعر عربي انساني شارك في الفلسفة والحكمة. ولد ومات في معرة النعمان، في سوريا، واليها ينسب. عمي صغيراً وغلب على مذهبه التشاؤم والتفكير المستقل. اشهر اثاره « اللزوميات » و« رسالة الغفران ».

بين اهل اليمين واهل الشمال ، متجاذَباً – كل يشد الى ناحيته ، ويعمل على شاكلته .

وإذا كانت الآثار الادبية بضاعة معروضة في السوق، معرّضة لأن تنفق او تكسد ، فليس من الواجب ان تكون بأجمعها بضاعة مزجاة او رديئة ، وان تكن الرداءة في هذا «الصنف» على الاغلب ، شرطاً في رواجها او « عدم وقوفها » ، بلغة السوق ..

١٩٢٧

*

ساعة مع العاملي

كنت في مكتب إحدى الصحف إذ دخل الاستاذ العاملي وعلى وجهه أنوار البشاشة والهشاشة ، وظلال الجد والتفكير . فلما بسط إليّ يده مصافحاً ، احزنني انه يقبض ذراعه اليمنى «مكوّعا» كأنه يشير بمرفقه الى ناحية» او يتأهب لدفع صدمة. فقلت في سري : «لأمرٍ ما...» وتمثل لي حينئذ استاذنا الريحاني الذي نعرف جميعاً انه لا يقدر على بسط يمناه . ولست ادري كيف ذكرت أيضاً ان العاملي في الزمن الاخير استحدث توقيعاً خطياً «زنكياً» يذيل بـه احياناً قصائده المنشورة في الصحف والمجلات ، وهو على مثال توقيع للريحاني أيضاً ، خطي «زنكي» لكن هذا أقدم عهداً . وهممت بأن أقول لنفسي : لعل انقباض الذراع اليمنى والتوقيع الخطي من قبيل توارد الافكار الشائع بين الشعراء ؟ ولكن الاستاذ العاملي قال ، وقوله الحق :

(١) كامل شعيب العاملي ، نسبة الى «جبل عامل» في لبنان ، شاعر معاصر ناسج على منوال الاقدمين ،يولع الادباء بدعابته.

– هو «العصبي» بليت به اخيراً ... وليس الالم في الذراع فحسب ، بل في جنبي كله . اصبحت اذا كتبت اربعة اسطر احتاج بعدها الى «هدنة» .

– هدنة من صراع شياطين الشعر ... شفاك الله يا استاذ !

وتناول حديثنا الادب والادباء ، فطرحت سؤالاً اجـاب شاعر «الحماسيات» عليه بما يلي :

– اني بدأتُ في نظم الشعر ولي من العمر ستة عشر ربيعاً. ويبلغ ما نظمته حتى اليوم نحو ٧٥٠٠ بيت في أربعة دواوين ، أكثرها تحت الطبع .

– إذن لو قسمنا هذا العدد على الايام ...

وفعلاً أخذنا القلم ، فجمعنا وطرحنا وقسمنا ، فإذا بالاستاذ العاملي قد نظم خلال سبعة عشر عاماً ، في كل يوم ، بيتاً وربع بيت ، وليس هذا بكثير . فما اضل اولئك الذين يأخذون عليه انه مكثر ! قال الاستاذ :

– وعلى كلٍّ فان المكثر خير من المقل . هـذا رأي ذكرته لبشارة الخوري ... لو أخذت الجيد من كثير الشاعر المكثر لكان أكثر من جيد الشاعر المقل – بالطبع . هـذه حقيقة حسابية في غاية البساطة والوضوح .

*

قضيت مع الاستاذ العاملي ساعة ملأى بالفوائد . وكنت أود لو يتسع المجال لنقل آرائه سواء في ادباء مصر وشعرائها ام في ادباء سورية وشعرائها – آرائه كلها التي كان يبديها بكثير من الحرية الحميدة دون ان يخشى في الحق لومة لائم. ولكن إذا لم يتسع المجال لجميع تلك الآراء فلا مناص من ذكر بعضها ليعم الانتفاع بها ، قال حفظه الله :

– استفتاء « الاحرار المصورة »[١] في اكبر شعراء سورية ؟ سخافة وأي سخافة ! لا رأيي ولا رأي أحـد من المعاصرين يقام له وزن . الحكم للمستقبل ! فقد تُطرح « حماسياتي » بعد مايه سنة في البحر ، وقد ينشدها الناطقون بالضاد ويتغنون بها بصوت واحد .. من يعلم ؟

– ولكن لو ألححنا عليك بان تجيب على الاستفتاء – بالطبع بعد ان تخرج نفسك من الموضوع – فما تقول ؟

– أنا لا ارشح نفسي .. المسألة بين خليل مطران[٢] وبشارة

(١) العدد الاسبوعي من جريدة «الاحرار» البيروتية . درجت في وقت على نشره كل اسبوع ، وفيه طائفة من الفصول الادبية واخبار الادباء .

(٢) خليـل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩م) (١٢٨٩ - ١٣٦٩ هـ) احد شعراء العصر المقدمين ، لقب بشاعر القطرين (الشام ومصر) وشاعر الاقطار العربية ، اشتهر بالتصوير الدقيق وبطائفة من المطولات الشعرية اهمها (نيرون) وكانت له يد في فتح باب التجديد امام شعراء العرب المحدثين . ولد في بعلبك ونشأ في لبنان ، وقضى اكثر عمره في مصر .

الخوري وآخرهما أقرب الى نفسي . أما اشعر المعاصرين على الاطلاق فشوقي[1] . ولكن شوقي له عشر قصائد من طبقة عالية وبها افضله على الشعراء جميعاً ، على حين ان سائر شعره رديء كشعر ...

.. وهنا أغفل اسماً ذكره الاستاذ العاملي ، لأني لا أحب ان اكون حامل الحكم بالاعدام «الشعري» على فتى ربما كان وحيد ابويه ... أليس كذلك يا استاذ ؟

ثم قادنا الحديث ، والحديث شجون ، الى ذكر الحملات المنكرة التي كان الاستاذ العاملي يُفاجأ بها ، حيناً بعد حين ، في طائفة من صحف البلد ، فقلت وأنا أهمّ بامساك طرف الحديث :

– مثل هذه الحملات يدل عادة على أحد أمرين : أما أن يكون الرجل الذي يُحمل عليه عظيماً ، وأما ان يكون «لا شيء» يطمع في ان يعده الناس شيئاً ..

الكن الاستاذ لم يمكنني من اتمام كلمتي فقال :

– لو ان عشر معشار هذه الحملات نزل بالسيد حليم دموس

(١) شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢م) (١٢٨٥ – ١٣٥١هـ) شاعر مصري، لقب بامير الشعراء في العصر الحديث. امتاز بغنائيته وروعة ديباجته. اشهر اثاره : الشوقيات في ٤ اجزاء، وطائفة من المسرحيات الشعرية: مصرع كليوبطرة مجنون ليلى ، عنترة وغيرها ...

لخر صعقاً ..

– الحملات العنيفة ايها الاستاذ ، لا تكون الا على الحصون المنيعة .

– نعم ، لذلك ما كنت لأبالي بها قط ، بل ان اول عمل آتيه ، اذا طعن في – اريد في شعري – احدهم ، هو ان اقوم بواجب زيارته كأن لم يك بيننا شيء مطلقاً . والشيء بالشيء يذكر : لقد قيل لي انك نشرت منذ عامين في صحيفة «البيان» مقالة بتوقيع «المغربل» انتقدت نظمي بها ...

– كلا ، فأنا اوقع كل ما اكتبه باسمي ، ولست «المغربل» بل صديقه .

– ولكن هل قلت لك كلمة في هذا الصدد ؟ كن على يقين ان ذلك لم يسوءني ... ألم اقل لك مرات : إني سأزورك ؟

وبينما كنت اجل واكبر ، من غير كلام ، هذه الاريحية في الاستاذ العاملي ، الواسع الذراع – كما يقول العرب – رغم انقباض ذراعه اليمنى بفعل العصبي المشؤوم الذي لولا علمي انه لا يُعدي ، لقلت انه اخذه من «الريحاني» إذ سمعته يقول كلمة هي مسك الختام لهذا الحديث الممتع ، قال بصوت بعيد القرار :

– انك لا تعرفني جيداً . أنا رجل «تعبث» فيه الطبيعة كثيراً .

ولقد اعجبني هذا القول من رجل يقول العارفون انه اعظم مرتجل للشعر في سورية ، ولكن الطبيعة لم ترتجله ، على زعمه ارتجالاً .

ولله في خلقه شؤون .

١٩٢٦

*

الشعر والدراما

قالت العرب من «ألف» فقد استهدف . وقال

الزهاوي : اما رباعياتي فعددها ألف رباعي

واأسفاه ! لم يسعدني الحظ بالاطلاع على كتاب (اشراك الداما) للاستاذ الزهاوي وفيه كما قيل «جمع ٥٠٠ لعبة لغيره من المشاهير و ١٠٠ لعبة من مخترعاته واستنبط لتصوير هذه الالعاب طريقة بالارقام .. الخ » . واأسفاه ! لا لأني شديد الولوع بالداما فاطمح الى جعل الزهاوي في احدى طبقات اللاعبين وناصبي الاشراك ، كما اني لا اطمع الآن بجعله في احدى طبقات الشعراء ومقيمي الاوزان ، كلا .. واأسفاه ! لأني كنت اذن اتيقن من صحة رأي يجول في ذهني ، الساعة وقد

(١) الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦ م) (١٢٨٠ - ١٣٥٥ ه) شاعر عراقي من شعراء العصر ، عبر في شعره عن بعض افكار جريئة خرج فيها على التقاليد. في شعره تفاوت كثير من الجيد المقبول الى التافه لفظاً ومعنى. اشهر اثاره قصيدته المطولة :«ثورة في الجحيم». وله رباعيات يتناولها المؤلف في هذا الفصل .

طالعت رباعياتــه مقارناً اياهــا بالاثر الذي بقي في نفسي من مطالعة ما سبق له نشره من قصائد ودواوين في حينها . وهو (أي الرأي) ان خير ما صنفه الاستاذ وابقاه على الدهر هو هذا المخطوط في اشراك الداما ، او هو خير (اقل ما يكون) من كل ما وفق الى طبعه حتى هذه الايام ، لئلا يقال انا نعدو الحد بالحكم على المجهول ، وان يكن ثمة افتراض معقول ان الصانع يعرض ، بل يقدم افضل مصنوعاته .

.. آه لا ! ماية شرك مخترع ليست بالشيء اليسير : كل شرك من الماية وليد جهد جهيد ، وسهد طويل ، وأوجاع كأوجاع الوضع . ولتعظمن هذه المخترعات في عينك اذا ذكرت انها اتت بعد الخمساية – والفضل هنا للمتأخر – التي «عرقت» البشرية لاستنباطها خلال قرون متمطية بصلبها .

فالزهاوي ، لا مراء ، مُدين لنا بكتاب ذي ابواب : في نشأة الداما وتاريخهـا ، وفي طبقات لاعبيها واهل الاختراع منهم ، وفي المفاضلة بين الداما والشطرنـج مثلاً : ايهما افيد في فن تعبئة الجيوش واكفل للنصر في الحروب . ثم تكون خاتمته ، انشاء الله ، في « رأي تنازع البقاء فبقاء الاصلح » الذي لا يفتأ يراه الزهاوي ولا نفتأ نعثر عليه نحن في منظومه ، في صورته الدائمة الواحدة ، والذي نحسب انه اهتدى اليه – لكل شيء في دنيانا علة – من لعبة الداما وكم لعب جر الى جد ، لا من

مذهب النشوء الدرويني عن طريق الرسائل الشميلية [1].

ليست الاشراك المئة المخترعة وحي الخاطر وثمرة الارتجال وبنت الساعة ، بل هي كما اسلفنا ، وليدة التفكير والاجتهاد والزمن . ولكن الزهاوي في الشعر ورباعياته نقيض الزهاوي في الداما واشراكها ، بطبيعة الحال ولضرورة الموضوع . هو في الشعر مكثر (قال له احد مناقضيه المصريين في مطلع قصيدة : اقلّ !) مرتجل فلا ينضج الشواء انضاجاً بل يلوحه تلويحاً ، مستقل عن الزمان فلا يشاوره في أمر ما يذهب جفاء وما يبقى لينفع الناس . وإذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات . واذا كان للداما ان تخلد اسماً فهي التي ستخلد اسمه : صاحب المئة اختراع بعد الخمسمئة . وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع : وكان « ايضاً » ينظم الشعر ..

لاحد ائمة الادب « غوتي » [2] الالماني كلمة جديرة بان تذكر

---

(١) الرسائل الشميلية اراد بها مقالات الدكتور شبلي الشميل (١٨٦٠ – ١٩١٧ م) (١٢٧٧ – ١٣٣٦ هـ) ، مفكر بارز سمات التحرر والجرأة في تفكيره ، كان في طليعة من عرفوا الشرق العربي بالمذهب الدرويني.

(٢) غوتي (١٧٤٩ – ١٨٣٢ م) شاعر الماني عالمي . من كبار اعلام الحركة الرومنطيقية . تأثر بالمقاييس الكلاسيكية ايضا. انتج في التمثيل والشعر الوجداني وفي الفلسفة والسياسة على عمق وابداع . اشهر اثاره : «فاوست ».

هنا قال : «ليس الادب الا جزءاً من اجزاء. فانه لا يكتب مما صنع او قيل ، الا طرف يسير ، ثم لا يحفظ مما كتب الا طرف يسير ايضاً . »

ويقول صديقه الشاعر (شلر) [1] : « بينما نحن نجهد انفسنا لنظم قصيدة لا بأس بها ، إذا بغوتي وليس عليه الا ان يهز بجذع الشجرة فتساقط على قدميه ثماراً جميلة يانعة . ويغلب ان تنشأ الاشعار في ذهنه من تلقاء ذاتها ولا دخل لارادته في ذلك ، بل رغم ارادته احياناً . ولقد نشأت طائفة من غرر قصائده تامة فلم تكلفه الا مؤنة كتابتها ، ولكن منها ما نام اربعين او خمسين سنة في رحم ابكار معانيه ، اعني ذلك الدماغ الذي حمل بتراجيدية (فاوست) الشعرية ما ينيف على ستين عاماً . »

هذا نموذج الشاعر الذي لم ينظم الا بدافع من القوة الباطنة، والا بوحي من قلب غني سخي واحساس فياض وذهن قادر . هو لم ينظم لينظم بل كمن يضع عن كاهله حملاً ثقيلاً .

لذلك حق لنا العجب من ان عدد الرباعيات التي اتحفنا الزهاوي بها الف رباعي دون زيادة ولا نقصان ، وحق لنا ان نتساءل : لِمَ لَمْ تكن (٩٩٩) و (١٠٠١) بل كانت كأصناف البضاعة التي تخرجها المصانع حسب الطلب من الاحذية الى

---

(١) شلر (١٧٥٩-١٨٠٥) ثاني شعراء الالمان في العظمة والشهرة بعد غوتي له تمثيليات وغنائيات رائعة . اشهر آثاره مسرحية (فالنشتين).

الامشاط ؟ البضاعة والرباعيات الجاهزة ؟

لعل ذلك ليكون بينها وبين الفية ابن مالك وجه شبه . فاذا جاز لاستاذنا ان يفرض على نفسه نصب ماية شرك من مخترعاته في الداما فحرام ان يعامل الشعر معاملة الداما ، فيقيم وزن الف رباعي او يجندها طابوراً .. للموت .

لعمر الخيام[1] شاعر الرباعيات الفارسي المشهور في الشرق والغرب نحو ١٤٠ رباعياً هي مـا اثبت نقدة الافرنج انها من نظمه . فاذا كانت طبعات كلكتا وبومباي الاخيرة تتضمن نحو ٥٠٠ رباعي فقد نُحل[2] الخيام اذن ضعفي الاصل الذي له. وفي هـذا دليل عـلى سلطان الرباعيات الخيامية وعظيم اثرها في النفوس وعالي مقامها في دولة الادب . اما الآن وقد ذهب عصر الانحال بقيام دولة الطباعة فـلم يعد من سبيل الى التساؤل كم تصبح رباعيات الزهاوي بعد كذا من القرون ؟ ولكن لو .. فهل كانت تزيد رباعياً واحداً ! نعم في قدرة صاحبها ان يزيدها آلافاً من هذا الطراز .

١٤٤ رباعياً خيامياً، كل واحد منها جوهرة بتمام المعنى وجدته

---

(١) عمر الخيام (القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري) شاعر فارسي جمع بين الشعر والفلك والرياضيات . اشهر اثاره «الرباعيات» ادارها على التغزل بالحانه والشراب وجمال الحبيب واشاع فيها فلسفة خاصة في الحياة قوامها اللذة واللاادرية والنظرة المنفتحة الى الاديان.

(٢) نُحل : نسب اليه شعر لم ينظمه .

وكمال الاسلوب ودقته. فيها خلاصة حياة الخيام متبلورة كالماس؛ فكره النفاذ واحساسه الرقيق وعاطفته الحية ، وطبع غير متكلف وصدق لا يعرف الرياء . كان يهز اليه بجذع الشجرة فتساقط على قدميه ثماراً جميلة يانعة .

لو عاش الخيام في «عصر الزهاوي» لقال الاول للآخر : لا، بالله عليك ! لا تقل في مقدمتك على هذه الرباعيات المتأخرة : وقد اخذت طرفاً من الدساتير الاجتماعية لغوستاف لوبون [1] متصرفاً فيها تصرفاً يقربه من النظم ، وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً.» بل لا «تأخذ» اجتماعيات . . ذلك العالم : اولاً لأن هذا يذكر الناس بنظامي علوم اللغة والطبيعيات والشرع في عصور الانحطاط اللفظية ، وثانياً لأن الراغبين في اجتماعيات لوبون يرغبون عن (رباعياتنا) الى تصانيفه . . ولكن لا بأس ! في قولك: «وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً» لهجة الاعتذار. وإذن كان الخيام يقول للزهاوي اشياء كثيرة غيرها .

وبعد ، فلماذا اختار الزهاوي هذا النوع من انواع النظم أو هذه الصورة، صورة الرباعي ؟ بالطبع لا للتوزيع فحسب ، ولا لأن صيت الخيام ملأ الافاق وحبه ملك القلوب . كلا، فالرباعي في ذاته لا يكفي لحصول هذه النتيجة ، وما كان لصيت الخيام

(١) غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) كاتب فرنسي له احكام في الاجتماع والتاريخ . لا تغلب عليه دائماً صفة العلم المعمق .

ان يفيء ظله في هاجرة النسيان على غير ما نظمه هو . فينبغي إذن ان يكون ثمـة ما اغرى الزهاوي باختيار هذه الصورة او القالب الشعري ، فكيف كان ذلك ؟

الجواب في كلمة لأحد حكماء العصر الشعراء ، «نيتشه»[1] الذي يقال انه اكبر شعراء الافكار تمييزاً لهم عن شعراء العواطف ، والذي كان لأسباب صحية لا يصنف، الا فيما ندر، كتاباً متماسك الاجزاء الآخذة بعضها برقاب بعض، بل كان يقيد آراءه واحداً واحداً بعد التفكير الطويل والنضوج الوافي ، في جمل موجزة لبابيه يسمونها «افوريسم» أو جوامع الكلم. لست أذكر ما قاله بنصه ولكنه يشبه هذه الكلم الجوامع بقمم الجبال، قائلاً ان الجبار وحده قادر على سلوك اقصر طريق من قمـة الى قمـة ، بتخطي الوديان .

فيمكن الآن القول ان نوع الرباعي في الشعر هو كالافوريسم في النثر وان الزهاوي اختاره ليودعه زبدة تفكيره وشعوره ، فتكون الرباعيات اعلى مظاهر التفكير والشعور ؟! اجل ومن هذا القبيل قوله في القطار :

مشى بنا فوق خطين ينهب الارض نهباً

---

(١) نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م)، فيلسوف الماني ، دعا لمذهب القوة وما سماه «الانسان الفائق » . اشهر اثاره : «هكذا تكلم زرادشت » .

وقوله في الكهرباء «اساس الحضارة» :

به التراسل فيه الشفاء منه الضياء

وقوله في «نسب» الشمس :

فانها ام دنيانا وابنة اللاتناهي

الى غير ذلك من التعاريف العلمية المفيدة وهي كثيرة .

اما التضمينات العجيبة النادرة فانك لا تكاد تقلب صفحة الا عثرت ببعضها: «ولكم في القصاص حياة. نظرة فلفتة فسلام. ما كل مرة تسلم الجرة». وغاية الابداع في قوله «مضمناً» :

ان المدارس اما امتلأن تخلو السجون .

وفي قوله :

افعل بغيرك ما تريد ليفعلوا
بك مثله وكما تدين تدان

حجر اصاب به عصفورين: الآية الانجيلية والقاعدة الإسلامية. وما سوى ذلك آراء في . . كل شيء ، توفق الى مثلها المرحوم جدك الا انها في هذه الرباعيات خسرت لهجة الصدق والسذاجة، دون ان تعاض عنها ، اللهم الا بالوزن .

لا حول ولا . . ها نحن هبطنا من قمم الجبال. ولكن لا بأس فقد عرفت في الوادي السبب في اني ما سمعت ولا تلوت يوماً قصيدة جديدة من نظم الزهاوي الا أحسست احساساً غامضاً

كانما سبق لي سماعها او تلاوتها اكثر من مرة ، قبل هذه المرة .. حس لا يخدع عما هو جديد ، وعما هو مدع للتجديد .

اما التواضع فشاعر الرباعيات قدوة فيه ، قال :

ايها الحب كنت لي
قبلما كنت للبشر
قبلما كنت للكوا
كب والفجر والقمر

ومن هذ النوع قول مصطفى صادق الرافعي :

لو يسمى في الانام الحب ما اختار سوى اسمي

بينما (دو بورثوريش) [1] الشاعر والتراجيدي الفرنسي الذي اجمع النقاد على انه من ابرع المعاصرين وصفاً للقلب الإنساني في حالات الحب ، لا يقول «في الفخر» غير هذا البيت :

«عسى ان يكون لي اسم في تاريخ القلب !»

اسم في تاريخ القلب أو اسم في تاريخ الداما ؟

المهم أن يكون لك اسم في تاريخ «شيء»..

١٩٢٤

---

(١) جورج دو بورثوريش : شاعر ومؤلف مسرحي فرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين . أشهر آثاره : « العاشقة » .

بين شاعرين

١

سوللي برودوم[1] والياس فياض[2]

اني كثير المطالعة قليل الكتابة . وقد أوتيت بسطة من العيش وكثيراً من الفراغ يسّرا لي الانصراف الى كتبي ودفاتري، اقرأ وافيد ما يعن لبالي، وقلما اغفل شاردة أو واردة لاعتقادي انها تفيد يوماً من الأيام . ولو شئت الآن ان اعيد النظر في حياتي الماضية واحصي ما مر عليّ من حوادث جديرة بالذكر، كي اكتب سيرتي بنفسي، لاستطعت دون عناء، اختصارها في هذه الجملة الجامعة «مطالعات في زاوية بيت» فان الكتب التي طالعتها هي اعظم حوادث حياتي .

---

(١) شاعر فرنسي يعرفنا به المؤلف تعريفاً وافياً في هذا الفصل .

(٢) الياس فياض (١٨٧٢ – ١٩٣٠ م) (١٢٨٩ – ١٣٤٩ هـ) شاعر لبناني تبرز عليه سمات النزعة المحدثة في الشعر العربي المعاصر . من اثاره «ديوان فياض»، وطائفة من مسرحيات نثرية اكثرها معرب .

كذلك لست أعرف واحداً من ادبائنا «المعروفين» معرفة شخصية ، غير محاول التعرف اليهم ، مكتفياً بقراءة ما يكتبون وما يكتب عنهم ، متصوراً «ذاتياتهم» المادية والمعنوية من خلال كتاباتهم وكتابات النقاد عنهم . وبقدر ما تكون كتابات الادباء شفافة صادقة تكون تصوراتي واضحة ، ولكن هذا نادر لأن اغلبهم يطرحون بينهم وبين القراء ، بغلبة الصنعة والتقليد على شعرهم ونثرهم حجاباً كثيفاً . واني لاجد في تصور كتابنا وشعرائنا المعاصرين على هذه الكيفية ، لذة تذكرني بما كنت اجد من لذة وأنا حدث السن ، في حل الألغاز والأحاجي الرائجة بين النشء . بيد أني لم احاول مرة ان اجرب صدق فراستي فاتعرف الى فلان الشاعر مثلاً ، لاقارن بين صورته في ذهني وصورته في حقيقته ، لسببين : اولهما الكسل عن معايشة الناس لاسيما طائفة الادباء منهم ، وثانيهما الخوف من ان افجع بصور لي في خلقها اكبر نصيب . وقد يكون ثمة اسباب اخرى لا اتبينها الآن .

زرت مصر منذ نحو عشرين سنة فسمعت حافظ ابراهيم[1] يلقي في احدى الحفلات قصيدة لشاعر مشهور لا أذكر أهو شوقي أم اسماعيل صبري[2] أم غيرهما. فاحدثت لهجته في نفسي أثراً بليغاً

(١) حافظ ابراهيم (١٨٧٢ – ١٩٣٢ م) (١٢٨٩ – ١٣٥١ هـ) شاعر مصري مقدم من شعراء العصر . لقب شاعر النيل. اشتهر بقصائد غنائية ومنبرية تجاوب فيها والروح الوطني ، فاحبه الشعب. واجاد حافظ في الرثاء العاطفي .

(٢) اسماعيل صبري (١٨٦١ – ١٩٢٣ م) (١٢٧٨ – ١٣٤١ هـ): شاعر مصري معاصر ، كان مقلاً ولكنه متقن .

وبقيت زمناً طويلاً لا اقرأ «بعيني» شعراً إلا كان يخيل إليّ اني اسمع لهجة حافظ كأنما نبرات صوته ترن في انحاء نفسي. فكانت صورة حافظ تخالط في ذهني صور الشعراء الذين اقرأ لهم فتكدر صفاء تصوري، كالاخيلة التي يراهـا الحالم في رؤياه ولا يفلح في ابعادها الا اذا استيقظ، بل قد يبقى شيء منها حتى بعد اليقظة، حينـاً قليلاً ثم تضمحل. واخيراً انستني الأيام لهجة حـافظ وصورته فكنت كمن افاق من حـلم مزعـج فإذا اعضاؤه سليمة، وحياته في أمان، ولا أشباح تعذبه مكشرة عن

...مسنونةٍ زرقٍ كانياب اغوال.

اني اذن منذ سنين طويلة منصرف الى مطالعة الكتب في زاوية بيتي. وقد اتت علي اعوام لم اقرأ في خلالها الا دواوين الشعر من عربية وافرنجية، قديمـة وحديثة. فاولعت زمنـاً بالمقارنة والمقابلة بين الشعراء، لاكتشاف اوجه الشبه او الاختلاف بينهم، مغتبطاً كلما وفقت في مسعاي اغتباط الرحـالة الذي يستكشف مجاهل الارضين والبحار. ويظهر انه كان لي شيطان يلهمني ويسدد خطواتي، والا فكيف قرأت في وقت معـاً ديوان الشاعر العصري الياس بك فياض وديواناً صغيراً للشاعر الفرنسي (سوللي برودوم) يتضمن قصيدة عنوانها (المجرة) تشبه قصيدة (النجوم) لشاعرنا العربي شبهاً عجيباً؟

الياس فياض شاعر مطبوع رقيق. وليس بضاره انه مقل،

فلعل له في اقلاله عذراً ، او لعل ذنبه الكسل ، او لعله نظم كثيراً في شبابه ثم ناله شيء من العياء (ولا اقول : العي) فأحب ان يأخذ لنفسه شيئاً من الراحة ، كالمسافر الذي قطع مسافة طويلة . عُني كثيراً بالترجمة عن الفرنسية لاسيما ترجمة القصص التمثيلية . وعرب ايضاً بعض القصائد مثل (سقوط الاوراق) للشاعر الفرنسي (مللفوا)[1] و (اذكريني) لألفرد دوموسه ، و (النسيم العاشق) التي اخذها من قصة تمثيلية شعرية اسمها Les Bouffons ويدعى صاحبها ميكال زاماكويي[2] وتعريبه هذه القصائد حسن ، رغم ما يعانيه المترجم ، على الاخص اذا اراد ان يترجم الشعر الفرنسي في شعر عربي مبين .

اذكر ان الاستاذ فياض نشر منذ بضعة اشهر في صحيفة المعرض مقالة ممتعة طلية انتقد بها قصيدة من نظم محمد كامل شعيب العاملي وهي قصيدة فلسفية أو علمية أو إلهية ، يقول صاحبها فيها اشياء عن النجوم ؟! وكان الاستاذ فياض مصيباً في نقده ذاك الاصابة كلها ، لكنه قابل في مقالته الانتقادية بين ابيات العاملي وابيات لشاعر لم يذكر اسمه ، وان يكن اغلب القراء عرفوا انه الياس فياض نفسه صاحب قصيدة النجوم المشهورة ، المنشورة في ديوانه .

ان قصيدة النجوم ، لالياس بك فياض ، هي قصيدة المجرة

---

(١) مللفوا (١٧٨٢ – ١٨١٦م) : شاعر فرنسي يعتبر من الممهدين للرومنطقية .

(٢) ميكال زاماكويي شاعر ومؤلف مسرحي فرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين . من آثاره : « المهرجون » و « الزهرة العجيبة » .

La voie Lactée لسوللي برودوم . ولا ادري لماذا لم يذكر الشاعر العربي انها منقولة عن اصل فرنسي، كما ذكر انه نقل تلك القصائد الثلاث المعروفة : سقوط الاوراق ، واذكريني، والنسيم العاشق . ألأنه لم يراع الاصل في الترجمة مراعاة تامة ، أم لأنه حور آخرها تحويراً طفيفاً؟ وعلى كل فان تلك «الخلقة» الفرنجية لم تتنكر في حلتها العربية تنكراً يضيع عنا حقيقتها : قد عرفناها وهل يخفى القمر ؟

واليكم قصيدة المجرة ترجمتها نثراً عن الفرنسية متقيداً بالاصل غاية جهدي ، وبإزائها قصيدة النجوم كما نظمها الياس بك فياض باسلوبه الرائق :

المجرة	النجوم
[للشاعر الفرنسي سوللي برودوم]	[لالياس بك فياض]
قلت للنجوم ذات مساء:	قلت للنيرات ذات مساء :
لا اخالك سعيدة،	أترى انت مثلنا في شقاء ؟
ان لأنوارك في اللانهاية السوداء	ساهرات الجفون – هل لفراق؟
حنيناً شجياً .	خافقات الضلوع – هل للقاء؟
	هائمات مع المجرة تجريـ
فكأني ابصر في السماء	ن الى غير غاية أو رجاء،
جنازة بيضاء يتقدمها عذارى	مثل سرب من المها ، ظامئات
يحملن شموعاً لا تحصى	حول ماء يمنعن ورد الماء ،

ويتبع بعضهن بعضاً بفتور.

أأنت ابداً في صلاة ؟
ام انت كواكب جريحة ؟
ان هذا الذي تريقينه
لدموع من ضياء لا اشعة .

انت النجوم ، جدة
الخلائق والآلهة ،
أأنت تبكين ؟
اجابت : نحن في عزلة . .

كل واحدة منا بعيدة جداً
عن اخواتها وان خلتها قريبة !
ونورها اللطيف الضئيل
لا شاهد له في موطنها .

وهكذا فان توقد اشعتها
يضمحل في سماوات لا تبالي.
قلت لها : قد فهمت ما تقولين،

او عذارى من حول نعش
حيارى
في صلاة ما تنقضي ودعاء .
ان في لحظك الشجي حنيناً
نافذاً سهمه الى احشائي .
وارى نورك الضئيل كدمع
سائل من محاجر بيضاء.
اثغور كئيبة ام جراح
انت في اللانهاية السوداء ؟
انت يا جدة الخلائق ، ام الد
هر ، يا ربة الهدى والضياء !
انت تبكين يا نجوم ؟ اجابت :
نحن في عزلة بهذا الفضاء :
بيننا الهجر من قديم فلا يد
رك منا تقارب الاضواء .
كل نجم منا يعيش بعيداً
عن اخيه في وحشة وجفاء ،
محرقاً نفسه بغير انتفاع ،
ذاهباً نوره سدى في السماء .
قد فهمت الذي تقولين يا شه
ب فانتن انفس الشعراء :

فانكن تشبهن الانفس . هكذا نورها يضيع بافق

نزلت منه منزل الغرباء ،

كذلك هي : كل نفس تضيء لا ترى الانفس القريبة منها

بعيدة عن اخوات تخالهن على ما بها من توقد وذكاء ،

كثب منها ،

وهذه الخالدة في عزلة ، فتنير الظلام حيناً وتمضي

تحترق صامتة ، في الظلام .. في ثياب الخلود نحو الفناء ..

هذان هما الاصل الفرنسي والاقتباس العربي ، ولا أحسب القاريء واجداً لذة في قراءة ترجمتي المنثورة الا هو واجد اضعافها في قراءة الاقتباس العربي المنظوم. ولكنه يحسن كذلك صنعاً اذا أخذ في مقابلة القصيدتين ، فرأى كيف يقدم الاستاذ فياض ويؤخر ، وكيف يختصر المعاني احياناً واحياناً يفصلها ، وكيف يجتهد لابراز تلك الصور الفرنجية في حلة عربية ، وأين وفق وأين لم يسعده التوفيق. أدع ذلك لغواة الشعر من القراء ، ولا يخفى ما فيه من اللذة والفائدة على السواء .

ان الاستاذ فياض، لما قابل في نقده العاملي، بين ابيات هذا الفاضل وأبيات الشاعر الذي لم يذكر اسمه والذي حسبه الناس يومئذ الاستاذ فياض نفسه لأن الأبيات من قصيدة منشورة في ديوانه – نقول : لعله لم يذكر اسم الشاعر يومذاك لأنه «تذكر» فجأة ان قصيدة النجوم هي في الحقيقة قصيدة المجرة .

ولكن الشـاعر الفرنسي برودوم يتكلم في قصيدته عـن الارواح او الانفس ، عن ارواح بني آدم جميعاً ولا يخص اناساً دون آخرين . فلمَ حصر الاستاذ فياض المسألة في طائفة واحدة من الناس هي طائفة الشعراء؟ ألأن الشعراء وحدهم ذوو ارواح وأنفس ، ام لأنهم اصحاب وجدان ؟

«دمشقي»

*

٢

كتاب مفتوح

سيدي الاستاذ الريحاني حفظه الله

اذا كان شيخكم شيخ الفلاسفة افلاطون[١]، اخرج من جمهوريته الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، وفي كل واد يهيمون ، فلماذا عصيتم امره ؟ ألا ترون يا سيدي رأيه انهم يعيثون في المجتمع وفي اخلاق الناس فساداً ؟ اقول ذلك لأن الشعراء ما كادوا يبلغون في هيامهم الطويل واديكم ، وادي الفريكة ، الا كنتم الى لقائهم خفافاً ، فاحسنتم وفادتهم وانزلتموهم على الرحب والسعة ، كأنكم تريدون تطييب خاطرهم فينسوا آلام النفي

---

(١) افلاطون : فيلسوف يوناني قديم امتدت حياته من اواخر القرن الخامس قبل الميلاد الى منتصف القرن الرابع . تتلمذ على سقراط . اشتهر بنظرية المثل . من اشهر اثاره كتاب : « الجمهورية » الذي يذكره المؤلف في مطلع هذا الفصل . وهو كتاب يصور فيه الدولة الفاضلة بحسب ما كان ممكناً في عصره .

الجائر الذي حكمت به عليهم منذ اجيال وقرون ، الحكمة – لا الحكمة – حكمة الامام افلاطون عفا الله عنه .

ومن قبل يا سيدي اكرمتم المعري إذ ترجمتم شعره في الانكليزية رباعيات، فزعم بعض المحبين – وهم كثر – ان الترجمة افضل من الاصل العربي ، ولكني أجد عناء كبيراً في تصديق هذا الزعم ، لأني أحب المعري في عروبته كما هو ، حباً جماً واعجب به اعجاباً لا حد له . ولعمري هل يستطيع مترجم مهما يكن مجيداً – وان يكن الريحاني – ان يترجم الى لغة اجنبية شعر الشاعر العبقري ، فتأتي هذه الترجمة خيراً من الاصل ؟ وعلى كل فاني لأرجو ان يكون المعري ، يوم نشرت رباعياتكم الانكليزية قد حملت اليه نسخة منها في ظلال الجنة التي وعد المتقون ، فخف الى «ملتون» [1] يقرئه اياها ، ثم جلسا يتعاكظان [2] .

اقول: في الجنة . اجل ، فالجنة ليست بمشيئة الله كجمهورية افلاطون خلاء من الشعراء . بل إذا كان هؤلاء الذين يقضون

---

(١) ملتون «١٦٠٨ – ١٦٧٤ م» شاعر انكليزي عالمي ، اصيب بالعمى . اشتهر بملحمته : «الفردوس مضاعاً » و « الفردوس مستعاداً » . دار في الاول على موضوع سقوط الانسان، وفي الثانيةعلى موضوع ظفر الانسان بالمغفرة . وله مؤلفات سياسية كتبها نثراً وسطر فيها اراء ثورية كالدعوة للجمهورية في انكلترا ، مع فصل الكنيسة عن الدولة ، والدعوة لحرية الصحافة .

(٢) يتناشدان ويتحاوران كانهما في سوق عكاظ .

عمرهم متوجعين من حياتهم الدنيا ، شاخصي البصر متطلعين الى جنات النعيم حتى اذا لحوهـا لحـاً ، او هبت عليهم منها نفحة عادوا الى انفسهم يجهدونها ليصوروا للناس ما رأوا ، وليودعوا شعرهم تلك النفحة العلوية — إذا كان هؤلاء لا يفوزون بالجنة فمن الفائزون ؟ وتالله ان لم يكن الشعراء في الجنة فأين يكونون ؟ ألا ترون يا سيدي الريحـاني انه ليس من الحكمة جعلهم في دركات الجحيم ، لئلا يفسدوا على الموكل بعذاب الاشقياء عمله ، فيسلوا المعذبين عمـا هم فيه من العذاب ، كما يسلون البشر في هذه الدنيا ؟

*

لنعد الآن، إذا اذنتم ، الى حبكم الشعر والشعراء رغم انف افلاطون ، صاحب تلك الجمهورية الحزينة . قلت انكم اكرمتم المعري من قبل ، واقول انكم تكرمون الياس بك فياض من بعد ، او تحسبون انكم تكرمونه فإذا انتم في الحقيقة تكرمون الشاعر الفرنسي سوللي برودوم . ولا ادري لمن الذنب في هذا ، بل يخيل إليّ ان الذنب لشيطاني انا . واليكم القصة :

كتبت منذ اسبوعين في هـذا (النديم) المؤنس مقالة قابلت فيها بـين قصيدة (المجرة) البرودومية وبـين ترجمتها (النجوم) الفياضية . وقلت يومئذ ان لي شيطاناً يلهمني في المقارنة او المقابلة بين الشعراء ، ويسدد خطواتي ، والا فكيف قرأت معاً ديوان

الشاعر العربي فياض وديوان الشاعر الفرنسي برودوم؟ ويلوح لي ان هذا الشيطان بينما كنت اكتب مقالتي تلك ، سول لكم أن تجلسوا حول طاولة المدام ، على رواية مجلة «مينرفا» في جزئها الاخير ، فتذكروا الشعر والشعراء والمتشاعرين ، فينشدكم الاستاذ فياض قصيدته «النجوم» فتفعل القصيدة في نفوسكم ، ويحملكم الاعجاب بمعانيها ومبانيها على ان تهتفوا : «الله ! الله ! هذا شعر خالد . هذا شعر الامم . » ثم تبرعتم يا سيدي الريحاني بنقلها الى الانكليزية ، او اقترح عليكم ذلك ، ولا فرق فالمهم انكم فعلتم : ترجتم قصيدة «النجوم» العربية في لغة شكسبير .

ولماذا ؟ بالطبع لا ليقرأ هذه الترجمة الجيدة في مجلة منيرفا، قراؤها من الناطقين بالضاد ، كما انكم لم تقتبسوا بعض لزوميات المعري وتودعوها رباعياتكم الانكليزية لاتمتع انا بمطالعتها . لقد اردتم في كلتا الحالين ان تظهروا الافرنج على آدابنا بنقل طائفة من نماذجها العالية .

ولكن .. أرأيتم يا سيدي ، لو ان شيطاني نشر غداً او بعد غد ، في إحدى المجلات الامريكية التي تزدان بمقالاتكم ، بعد مقدمة وجيزة يطري فيها الادب العربي في هذا العصر ويذكر فضل الاستاذ فياض عليه . . اجل ، لو ان شيطاني نشر قصيدة النجوم بالعنوان الآتي :

The Stars
By Elias Fayad
Translated by Ameen Rihani

على نحو ما فعلت «مينرفا»، ثم اخذ المجلة فتى أمريكي يطلب العلم في كلية الآداب بباريس ويشتغل في اطروحة – كما يقول صديقي المجمع العلمي العربي – موضوعها : « الرأي الفلسفي في شعر سوللي برودوم» او «سوللي برودوم والمذهب البرناسي» لينال باطروحته شهادة الدكتورة في الآداب ، فوقع نظر صاحبكم على «نجومنا» فقرأها فذكر انه قرأ شيئاً من هذا القبيل في غير هذا الموضع ، ثم ذكر اخيراً انها «مجرة» شاعره سوللي برودوم ... أرأيتم يا سيدي الريحاني لو ان القصة تختم بقول الفتى الامريكي وهو يضحك :

– ولكن .. ولكن .. هذه بضاعتنا ردت الينا !

*

إذن، لقد هتفتم يا سيدي ليلتئذ: «هذا شعر خالد. هذا شعر الامم!» اما انه شعر الامم، فلا عجب: قصيدة افرنجية التصور والاحساس والتفكير ، اشترك في وضعها قلبٌ غربي ودماغه . ولكنكم تغفرون لي جرأتي إذا قلت ان اكثر اعجابكم بها ناتج عن ان هذا النوع من الشعر نادر في أدبنا العربي بل يكاد يكون معدوماً ، والا فان للشاعر الفرنسي سوللي برودوم في دواوينه الشعرية العشرة مئات من القصائد تماثل قصيدة المجرة او النجوم وتفضلها، وليس سوللي برودوم في الطبقة الاولى ولا الثانية بين شعراء الفرنسيس . كان امام البرناس وهو مذهب في الشعر تقوم

دعوة اهله على تجويد المبنى ولا مذهب لهم سواه، وكان في حياته ذائع الشهرة، وكانت كتبه متداولة، لكنه بعد سنة ١٨٨٨ ترك نظم الشعر، ورغم انه توفي سنة ١٩٠٧ أي من عهد غير بعيد، فلا يقرأ الناس اليوم شعره كثيراً، ما خلا بضع قصائد يجدهـا الطلاب في كتب المختارات الشعرية، وإحدى هذه القصائد، إذا لم اكن مخطئـاً، قصيدة « الاناء المكسور » التي عربها بشاره الخوري.

وعلى كل فاني لارجو ان تكونوا صادقين في تنبؤكم عن هذا الشعر، فيكون خالداً بإذن الله، لا لأني اضن بدواوين سوللي برودوم ان تعصف بها ريح الزمان فتذريها كورق الخريف، كلا فان للشاعر الفرنسي رباً يحميه او يتخلى عنه – هو وشأنه. بل ارجو ان تصدق نبوءتكم لأنكم تكلفتم شيئاً من العناء، وحملتم مؤونة هذه الغريبة الدار: القصيدة الافرنجية المعربة، فنزعتم عنها الحلة الموشاة التي كان خلعها الاستاذ فياض، ثم اعدتموها في زيها الاصلي لتردوهـا الى اهلها، كما ترد الامانات، سالمة غانمـة، ولكن متغيرة بعض الشيء بفعل المناخ، عافاها الله. وإذا كان نفر من الناطقين بالضاد قد الفوا هذه الغادة الفرنسية التي قضت في ربوعهم نحو أربعة عشر ربيعاً، وشغفوا بمحاسنها الغريبة حبـاً، فلا بأس ان يودعوها بدمعـة. قولوا لهم معي يا سيدي الريحاني:

– عزاء يا اخواننا! لا بد من ان يرجع الشيء الى اصله،

مهما يطل العهد ويبعد المزار . وإذا كان مكتوباً لهـذه الغادة الحسناء ان تهرم ويذهب جمالها ، فخير لنا ولها ان تكون عند اهلها ، فان هؤلاء احق بإيوائها يوم لا تصلح لشيء .

*

ما العمل يا سيدي ؟ لقد كانت النية ، اذ اردتم اطـلاع الغرب على نموذج حسن من أدبنا العصري ، حسنة صالحة ، فإذا لم توفق النية هذه المرة فلأن شيطاني افسد عملها المشكور ، قاتله الله وحفظكم الله !

وفي الختام يسألكم الصفح الجميـل امرؤ أراد ان يتشرف بالكتابة اليكم ، فاذا بمئات مـن قراء (النديم) حول منضدته يقرأون من غير استحياء ما يكتب - إذ هـذا هو الكتاب المفتوح على ما يظهر - والسلام عليكم من معجب بكم وبفياض ، بل بكل نزعة مباركة الى التجديد في عالمنا العربي .

الصالحية في ١ مايس سنة ١٩٢٧

«دمشقي»

يوسف غصوب

١

القفص المهجور

يقول « ريمي دو غورمون » [١] من نقدة الفرنسيس : « كل تبديل يطرأ على أدب أمة من الأمم ، فلا بد ان يكون ناشئاً عن علة خارجية » او اجنبية .

بهذا الرأي الحصيف احب ان استهل كلمتي الوجيزة في المجموعة التي يتحف بها يوسف غصوب [٢] أدبنا العصري . ولا ينكر ان الذي يلقّبون (او يلقبون أنفسهم ، او يلقب بعضهم بعضاً) بالمجددين هم رهط من الأدباء تأثروا بالآداب الغربية تأثراً بليغاً (او غير بليغ) ذلك هو الواقع الذي لا محيص عنه.

---

(١) ريمي دو غورمون (١٨٥٨ – ١٩١٥) : اديب فرنسي اشتهر بفن النقد . دافع عن المذهب الرمزي. من آثاره «تأملات في الحياة » ،«نزه ادبية » .

(٢)شاعر كاتب لبناني معاصر .له من الشعر مجموعات : « القفص المهجور » و « العوسجة الملتهبة » و « قارورة الطيب » و « الابواب المغلقة » .

ولا ينكر ايضاً ان الخلاف بين هؤلاء وبين خصومهم (ويدعون بالمحافظين ، او بالمقلدين اذا اريد الزراية عليهم) يقوم على هذه المسألة : هـل تورث الآداب الغربية الادب العربي غـنى ونمـاء وجـدة ، أم انهـا تدخل عليـه الفوضى ، وتسمه بالرطانة ، وتشوه محاسنه ؟

فامـا ان يصم دعـاة التجدد (او ادعياؤه) خصومهم بالتقليد ، لتأثرهم بالادب العربي التليد — فهو حق وصدق . للمحافظين بعد ذلـك ان يقذفوا المجددين بهذه الكرة نفسها ، لتأثرهم بالآداب الغربية الطريفة — فهو عدل وصواب . ونحمد الله على ان الكرة لن تصيب من هؤلاء ولا من اولئك مقتلا ، والا بطل اللعب وخلا الميدان . لكن بين المجددين والمحافظين في تقليدهم جميعـاً ، هـذا الفرق الظاهر وهو ان هؤلاء يأتوننا بنماذج متشابهة من أمثـلة معروفة مألوفة ، في حين ان اولئك يأتوننـا عـلى الاغلب بنماذج طريفة من امثـلة غير معروفة ولا مألوفة . وليس كل مـا يتحفنا بـه المجددون من امثـلة غـير معروفة « منكراً » .

*

لقد بنى «دوغورمون» رأيه الذي ذكرنا على شواهد صحيحة من تاريخ الادب الفرنسي . وفي اوربة اليوم علم قائم بذاته يسمونه «تاريخ الآداب بالمقابلة» موضوعه التأثيرات التي تقايضتها الآداب

الإنسانية في مختلف الازمنة (من هذا التاريخ فصل ضاف في انفعال آداب الغرب بالآداب الشرقية عامـة ، والادب العربي خاصة . وقد نجد شيئاً من هذا القبيل في تاريخ أدبنا : العصر العباسي – الاغريقي الفارسي ، مثلاً) .

فاذن الادب العربي بين أمرين لا ثالث لهما : إمـا ان يظـل محافظاً يحيا بعادته ، متأكلا مجتراً ، ويعيد ذاته كرجع الصدى ، ويتقمص رجاله بعضهم بعضاً ، وإما .. بل ثمة أمر واحد ليس لأحد في دفعه يدان ، نعني التبديل الطارىء على أدبنا الحديث ، بفعل عناصر خارجية أجنبية : ليس الادب العربي جزيرة في عرض الاوقيانوس – تنتظر كـولمبوس ، ولا روحنـا صخرة تتحطم عليها هـذه الثقافات الغربية الجائحة الفاتحـة ، الهائجة المائجة . واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها ، فاين نجعل أدبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان ، و « لا عاصم اليوم » !

*

يوسف غصوب أحد شعراء العصر الذين تأدبوا باداب الفرنجة واقتبسوا من ثقافتهم . وان القراء ليجدون في مجموعتـه هـذه آثاراً واضحـة جليـة من تلـك الآداب والثقافة . فقصيـدة « الانتظار » مثلاً تذكرنا أحدى قصائد « الفرد دو موسه » الاربع المشهورات ، أعني « ليلة اكتوبر » التي يصف فيها الشاعر المدنف آلام نفسه ولواذع غيرتـه ، وهو ينتظر حبيبتـه « الفاجرة »

طوال ليلة من ليالي الخريف حتى اذا وافته ضحى ، خاطبها بمثل قول شاعرنا العربي :

بينما مهجتي تذوب انتظاراً
هي في خمرة وفي أوتار
ترشف اللهو في ذراعي حبيب
ضم من جسمها شرارة نار ..

ولله ما أقرب الشبه بين امنية يتمناها يوسف غصوب في قوله :

هـذه غايـة الاماني ! هـلا
رقـدة في ظـلالهـا بسلام
تتـلاشى نفوسنا في هـدوء
دون مـا حسرة ولا آلام
مثلـا تفقد الزهور شذاهـا
حائنات في جنة الاحلام(١)

وبين مثل هذه الامينة للشاعر الفرنسي Albert Samaint(٢) القائل :

Oh ! s'en aller sans violence
S'évanouir sans qu'on y pense
D'une suprême dèfaillance ....
Silence .. Silence .. Silence ..

---

(١) حائنات : ادركها حينها اي موتها .

(٢) البير سامان «١٨٥٨ – ١٩٠٠ م»: شاعر فرنسي ، سرى اثره الى طائفة من شعراء لبنان المحدثين .

ليست هذه الهنات مما يحمل على الظن بان يوسف غصوب قد احتذى عن رويّة تلك المثل الشعرية ، او انه يحتذي أي مثل غيرها ، سواء من أدب العرب أم من أدب الفرنسيس . واحسب ان لا داعي الى القول اني عرفته شاعراً مطبوعاً ترباً به كرامته وكرامة الشعر عنده ، عن تقليد الاولين والآخرين ، بل عن مجاراة الشعراء الذين يحبهم حباً جماً ويعجب بهم اعجاباً لا حد له . كذلك فان تأثره بالادب الغربي أبلغ من ان يقصر على هذه الظواهر ، وأعم من ان يحصر في حادثات مفردة .

من آثار الادب الغربي في شعر يوسف غصوب هذه الوحدة ، معنى ومبنى ، التي يجدها القارىء في مجموعته القفص المهجور (وليست الوحدة مما يباهي به الادب العربي آداب الامم الأخرى) حتى ليصح القول انها قصيدة واحدة . وفي هذه القصيدة قصة نفس قلقة موحشة في حياة غير موآتية ولا راضية تحس نقص الحياة وعدم موآتاتها احساساً موجعاً أليما ، فهي تفر من هذه الدنيا المملة المحزنة ، لائذة بجنة الاحلام ، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة . وهي لعمري قصة النفس الإنسانية على اطلاقها ، من البداية الى النهاية ، تقصها علينا الاديان تارة والفنون تارة أخرى – النفس الإنسانية التي لا تفتأ تنقل ظمأها الى النعيم ، من سراب الى سراب لا تروي ولا تبرد غلتها ، حتى تقع على السراب الأعظم .. جزى الله الأنبياء والشعراء عن البشرية كل خير ، فهم المعزون بصور الكمال ، في الدنيا وفي

الآخرة . ولهذا نقول ان لشعر يوسف غصوب دلالة إنسانية بليغة عامة ، وهي أول مزايا الشعر وسائر الفنون .

*

من الألفاظ الشائعة عند الفرنسيس : « شقيقة النفس âme - sœur » وهم يعنون بها ما يقوله الشاعر في قصيدته « وحشة القلب » :

برأ الله أنفس الناس أزواجاً تداعى ، فكل نفس لنفس ..

ولقد كنت احسب هذا الاصطلاح غريباً على اللغة العربية ، حتى قرأت قول أبي نواس (او قول والبة ابن الحباب [1] لأبي نواس في رواية) :

يا شقيق النفس من حكم
نمت عن ليلي ولم أنم

بل أعجب من هذا قول ابي نواس ايضاً في موضع آخر :

وشقيقه النفس التي حجبت
عن ناظريك ...

فهو يمثل ما نحن بصدده أجود تمثيل ، لولا انه عني الخمر .

---

(١) والبة ابن الحباب الاسدي : شاعر عربي عباسي ، عاش في القرن الثامن الميلادي ، الثاني الهجري ، لقيه ابو نواس في مطلع الفترة . وكان لوالبة اثره في توجيهه شطر المجون .

ولكن هل الحب والخمر والإيمان الا سبل متفرقة ، يسلكها الناس الى غاية واحدة : النعيم ؟

ولا بد هنا من القول ان تلك الآثار من الآداب والثقافة الغربية التي يجدها القارىء في شعر يوسف غصوب ليست بضائرة اسلوبه في شيء ، فهو اسلوب عربي مبين ، لا سمة للعجمة عليه . ولقد وفق هذا الشاعر الى حسن الملاءمة بين معانيه ومبانيه (ليس حسبنا ان يكون ثمة انسجام في الألفاظ وانسجام في المعاني ،بل ينبغي ايضاً ان يكون الانسجام بين المعاني والمباني) . زد على ذلك ان له حظاً من الموسيقى اللفظية غير يسير يهيء نفس السامع ويجعله في « الحالة الشعرية » الخاصة ، وانه مقتصد في الكلام يومىء على الاغلب ايماء لطيفاً ويوحي وحياً خفياً ، لكن لهذا الوحي في جوانب النفس اصداء شتى بعيدة القرار .

*

هذا .. وبعد فان (القفص المهجور) حادث ادبي ذو شأن : زهرة نضرة في هذه الايام الجديبة ، في بيداء حياتنا الادبية ، وزهرة واحدة – في عالم الشعر – تكفي لان تملأ البادية أرجاً طيبا ، وحسناً فاتناً ، وحياة بهيجة . ان في هذا الديوان الفريد لعزاء لنا عن كثير من رزايانا ، لا سيما تلك القصائد والدواوين ، التي (نُطعن) بها كل حين ، وللشعرُ اول المرزوئين ، اجارنا الله واياه – آمين .

٢

المأدبة

لا مأدبة افلاطون أعني ، ولا المأدبة التي أدبهـا ليوسف غصوب منذ بضعة أيام اخوانه الادباء – كدت أقول: الآدبون– ولم يدر فيها حوار سقراطي ، لان سقراطها ما كان . أنا أعني ، بعد « القفص المهجور » هذه « العوسجة الملتهبـة » التي طلعت علينا كعروس شقراء ، كما جلتها يد الماشطة ، بل الطابعة .

أليس من فضل الله علينا ان يأتينا يوسف غصوب داعياً ، كرّة بعد كرة ، الى احدى المآدب الملكية التي يأدبهـا الشعر لابنائه – صفوة الخلق ، والتي لا تعدل لذاتها عندي لذةٌ مـا بلغت ، في هذه الحياة الدنيا . فإذا على تلك المائدة السنية كل فاخر وطريف ، وكل شهي مستملـح ، وكل حسن معجب . كيف لا ؟ وهذه الالوان النفيسة من طعام وشراب ، وازهـار وانوار ، وآنية – أقسم انها لما أعده جن عبقر لتطوف علينا

به ملائكة الجنان « بقضاء من مالك السموات والارضين .

وقديماً كنت أتعاطى مع الشعراء الشعر كما يتعاطى الندامى المدام ، فلا أتعدى في ثملي[1] حدود الوقار . بل وقع لي مرة او مرتين ان اخذ مني السكر حتى خرجت الى السوق متغنيـاً بقصائد شاعري المختار ، معربداً . ولكني على الاغلب كنت امكث في مجلسي كالمشدوه ، في عينيه رؤى السحر من ذلك العالم الآخر .

وبين عشية وضحاها سولت لي النفس الامارة تجـارب سوء في النظم ، فسقطت في حمأة الخطيئة ، اذ نظمت ، ولا فخر ، قصائد مطوية منسية ، بل « ارتكبت » وهـو الاصح ، بعض ابيات دارسة طامسة . ثم لم البث ، لحسن الطـالع ، ان تبت توبة نصوحاً ، فكنت كعاصر الخمر الذى ما كاد يختم زجاجته ليقربها قرباناً على انها « لذة للشاربين » حتى كتب عليها : «خل» والقاها في زاوية المطبخ .

ولقد كنت قبل عهدي بالنظم فتى كالفتيان ، مولعاً باعمال المجد والفروسية « لم تواته احوال الدنيا ليكشف عن سريرته بعمل مجيد او مأثرة غراء في احدى نواحي الحياة . فلما لم يجد صبراً على لجاج هذه الحاجة الملحـاح ، عكف على قراءة سير

(١) الثمل اثر الشراب قبل اشتداد السكر .

الابطال وقصص الفرسان خداعاً لنفسه وتمويهاً عليها ، يغير غاراته الشعواء في عالم الخيال . واستمر على ذلك زمناً ، حتى جمعته الاقدار « بدون كيخوتي »[1] الذي خرج من قريته شاكي السلاح ، مغامراً مفاخراً ، فلما لم يلق من يحاوله ويناضله ويقاتله اغار على طاحون الهواء – وكفى الله المؤمنين القتال ... ولست اذكر هل اسعد الحظ « دون كيخوتي » في حياته ، او في حكايته ، بفارس مغوار يعمل في جثمانه الحق لا الباطل ، سيفه او رمحه طعناً وضرباً ، لكنه بعد موته بقرون ، ظفر في ضمير ذلك الذي كنته ، بعنترة[2] المتحرك في اهابه ، فقتله شر قتلة : لقد شفاني من داء البطولة .

وما كدت ارتاح من هياج عنترة حتى تحرك فيّ السندباد[3] ، اذ اصبحت بمثل التناسخ ، فتى يقضي وقته على أهبة الطواف حول الارض ضارباً في مجاهلها ومعالمها ، جوابة تتقاذفه الفلوات

---

(١) دون كيخوتي : شخصية روائية خلقها الاديب الاسباني سرفنتس (١٥٤٧ – ١٦١٦ م) وجعل منها شخصية انموذجية عالية ، لانسان متعلق بعصر الفروسية بينما عصره قد اختلف ، فامتزجت في حياته المأساة المفجعة بالملهاة المضحكة .

(٢) عنترة العبسي : شاعر ، فارس جاهلي ، احد اصحاب المعلقات السبع . عاش في القرن السادس للميلاد . كان عبداً اسود اللون اشتهر ببطولته وحبه لابنة عمه عبلة .

(٣) السندباد : شخصية اسطورية ، بطل رحلات ومغامرات مروية في كتاب الف ليلة وليلة .

والحواضر . فكنت في ذلك العهد السعيـد وقصاراي قراءة كتب الاسفار آناء الليل ، ورحلة بالترام على خط المنارة ذهاباً واياباً ، اطراف النهار . ولا اعلم من قتل في نفسي هذا السندباد الذي لم يكن برياً يعـرف ، ولا بحريا يوصف ، ولا جوياً على التأكيد . المهم انه لحق بعنترة في عالم الذكرى

كما قر عيناً بالاياب المسافر .

ويلوح لي ان في نفس كل امرىء ثلاث جثث من هذا النوع على الاقل : عنترة عبس ، فسندباد الف ليلة وليلة ، فمجنون ليلى ، في ثلاثة اضرحة ، مكتوب على قبرياتهـا : « هو الحي الباقي ! » دون تاريخ .

فلا عجب اذا قلت الآن إني اصبحت في النظم ثالث ذينك الرجلين او صنوهما : يتلجلج الشعر في خـاطري ويتلعثم به لساني ، ويهم بي وأهم به ، ثم تدركني رحمـة ربي فامسك ، معزيا النفس كلما دعيت الى مآدب الشعراء ، او تطفلت عليها وكثيراً ما افعل ، بوقفة عند طرف المائدة ، على عتبة الباب .

هكذا كنت على عتبة الباب ، منذ نحو عشرة أعوام ، في مأدبة « القفص المهجور » فكتبت مقدمة تلك المجموعة الاولى التي نظمها يوسف غصوب . لا أقول هـذا مذكراً ، فليس في الامر كبير طائل ، ولكن المجموعة الثانية « العوسجة الملتهبة »

التي اتحفنا بها الشاعر بعثت الساعة ، في خاطري، صوراً غامضة من ذلك العهد البعيد ، تتسلل في خفاء الجدران خجلة وجلة ، بين زخارف العصر الجديد .

واخال اني كنت يومذاك قادراً على مسايرة الجيـل خطوة خطوة في مناحي أدبه ، فقلت في هذا الشعر ما قلته عن دراية وبصيرة ، ثم بلغ مني الاعجاب فخرجت من تلك المأدبة الملكية الى السوق متغنياً بقصائد الشاعر المختار . فحبـذا لو استطيع اليوم ، وقد مشى الجيل وانا لا ازال في مكاني ، حيث تركني ، وعلى كاهلي عشرة اعوام، ان اصطنع العربدة في مأدبة «العوسجة الملتهبة » ، بل هذا العرس الاشقر ، بلغة العصر .

حسبي اليوم ان امكث في مجلسي ، عند طرف المائدة ،على عتبة الباب ، كالمشدوه ، في عينيه رؤى السحر من ذلك العالم الآخر .

١٩٣٧

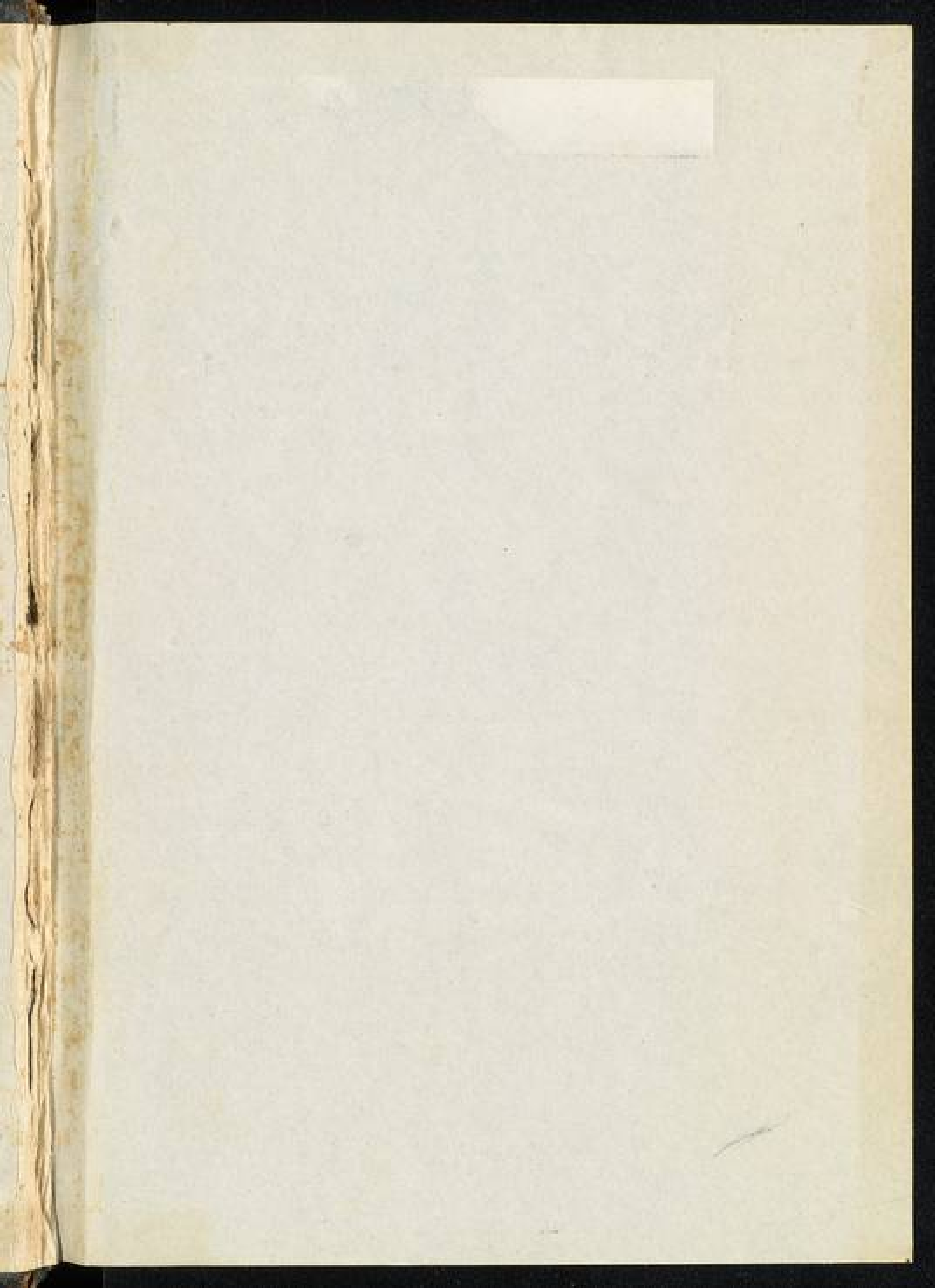
*

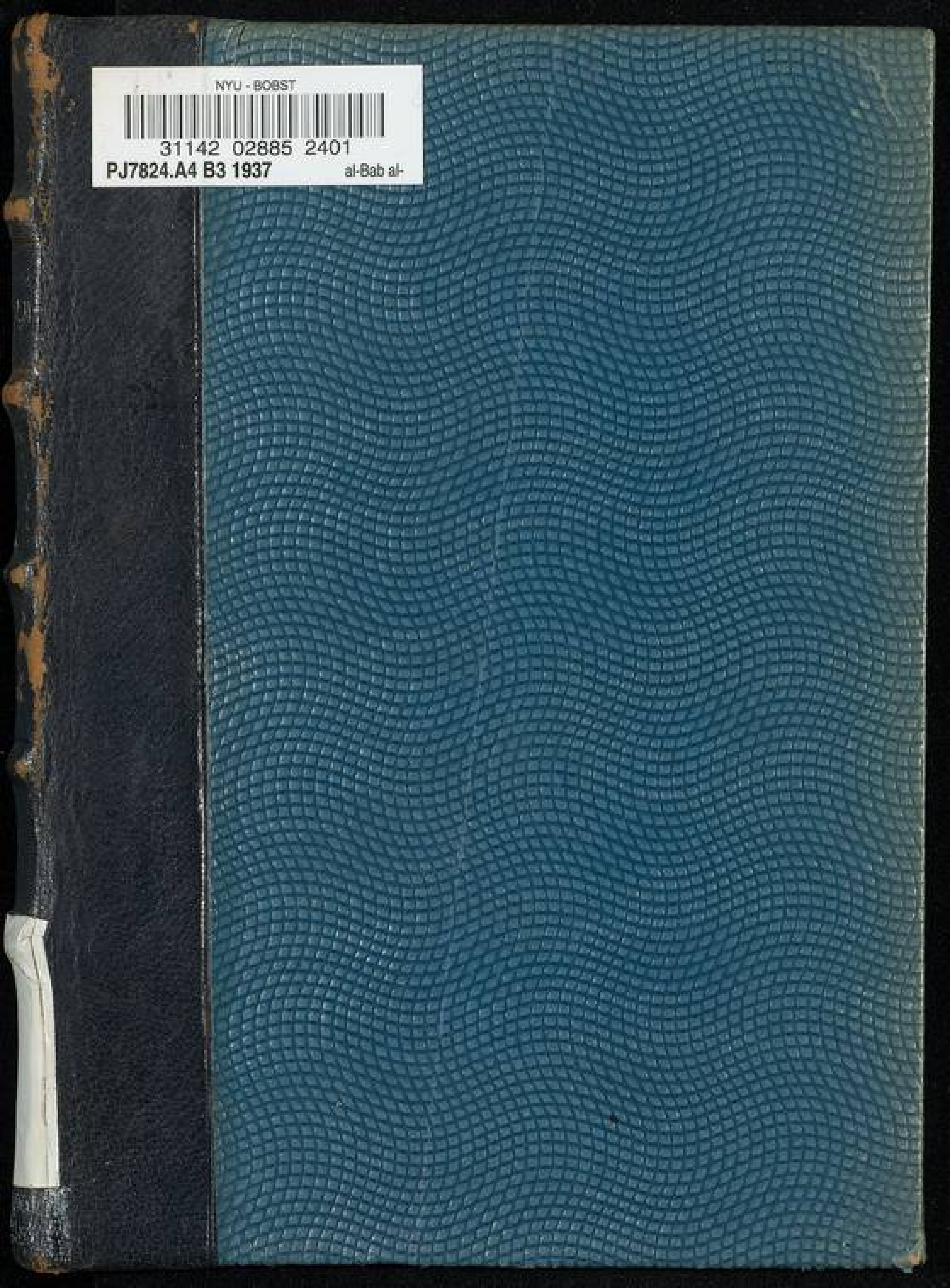
فصول الكتاب

مطبعة معتوق اخوان

بيروت - شارع احمد الشدياق

الثمن : ٢٥٠ ق. ل.




NYU - BOBST
31142 02885 2401
PJ7824.A4 B3 1937
al-Bab al-